

نورا مرعي
سَتُحبّينَني يومًا
رواية
الفارابي

سَتُحبّينَنِي يومًا

نـورا مــرعي

سَتُحبّينَنِي يومًا

رواية

دار الفارابي

الكتاب: سَتُحِبّينَنِي يومًا

المؤلف: نورا مرعي

صورة الغلاف: نارا مهدي خليل

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٥

ISBN:978-614-432-282-6

إهداء

إلى أجملِ منفى في الحياةِ، وأحلى سجن في الوجود...

إلى جحيم فردوسي المنثورة أزاهيره بين عيونِ الكونِ...

إلى جنّة عذابي المحفوفة بأفئدةِ العشّاق...

إلى كلّ غريقٍ تمدّد به السّبيل بين يمّ العناء، والشّقاء...

إلى كلّ السّفن الضّاجة بأصوات المتيمِين...

أُهدي نزيفي بين رشفات إبريق المعنى

إلى خالد ونيروز بطلَيْ روايتي...

جماليات السّرد وذهنيّة التّأمّل الفلسفي

لم يكن العثور على هوية الرّوح يسيرًا أمامها قطّ، كان البحث الدّائم عنها هو أكثر ما يؤرق تفكيرها. وإذا كانت الهوية الشّخصية يسيرة في الأوراق والأختام، فإنّ هوية الرّوح أخطر ما يبحث عنه الإنسان.

يتسنّى لنا ونحن نتصفّح رواية الشّاعرة والكاتبة المبدعة نورا مرعي أن ندوّن بداءة هذه الرّؤية الّتي تتمثل في عذابات البحث عن الهوية الرّوحية، عبر فضاء دلالي هو من الخصوبة بمكان حيث يهيمن على البنى الدّالة لروايتها: «ستحبّينني يومًا»، وهي بنى تتدرّج بمستوياتها الدّلالية في فضاء اكتسى دالة الحبّ فضاء له، وصورة عامة لتشكّله.

تصطفي نورا مرعي مكانًا أثيرًا يتعالق بشكل جوهري مع ما تصبو إلى طرحه في خطابها الرّوائي. فهذا الخطاب الّذي يتشكّل من جملة من البُنى المعهودة سواء على مستوى التّقابل بين الحوار والوصف، أو على مستوى السّرد الحيوي الأكثر خصوبة في أسئلته والأكثر حيوية في حركته، هذا الخطاب لا تقدّمه الكاتبة إلا بتمهيد يطوي في بناه مسألة: «العتبات النّصّية» - بحسب جيرار جينيت- فيما يسعى إلى

تجاوز هذه العتبات أحيانًا بمرجعية بارتية بقراءة البنى العميقة لسطوح الكلام الرّوائي أو حتّى بتجاوز شعريّة تودوروف وفيليب هامون معًا بإضفاء قدر من الخيال الكثيف الّذي لا يكتفي بتشعير النّص بقدر ما يضمّنه جملة من الحمولات والشّحنات الرّمزية.

تستهل الكاتبة نورا مرعي أحداث روايتها بطريقة فريدة في نوعها، وهذا الاستهلال متضامن مع شخصية مدرّسة الفلسفة «نيروز» والطّبيب «خالد»، هذا الرّجل الغامض الّذي يتقصى الوصول إلى حقيقة ما وهويّة ما. المكتبة العامة هي المكان الأول الّذي تنطلق منه الرّواية حيث يلتقيان فيها فيما كان يطالع كتابًا في علم النّفس، بينما تطالع كتابًا فلسفيًّا لتنبثق الأسئلة المتّشحة بإطار فلسفي جليّ، لتبدأ الرّواية بهذه الوحدة النّصّية المكثفة الّتي ربّما تومىء إلى بداية متأملة تحفّ بالرّؤية الفلسفية للحياة.

تتلاقى الشّخصيتان الجوهريّتان في الرّواية، ويدور حوار متصل على امتداد صفحاتها، تشفّ به الكاتبة عن عذابات الإنسان ومكابدته الدّائمة بحثًا عن مثال. إذ يطارد خالد نيروز بحثًا عن معرفة، وبحثًا عن حبّ مختلف، لا تتلاقى رؤيتهما في البداية، خصوصًا أن نظرتها الفلسفيّة المتأملة للحياة ربّما تختلف عن نظرته، وهي مدرّسة الفلسفة بالمعهد.

تسعى الكاتبة في الرّواية من بداياتها إلى رؤية العالم عبر سياق حواريّ فلسفيّ، والشّخصية الجوهرية في الرّواية هي نيروز الباحثة

عن الهويّة: هويّة العالم، السّعادة، الحبّ، الأنا والآخر، الذّات، وهي كلّها إشكاليات تتسرّب في السّياقات السّردية للرّواية حوارًا أم وصفًا، ويصبح «خالد» آخر بالمعنى الحواري الفلسفي، فهو المتزوّج من أخرى يرغب في الزّواج بنيروز، بعد أن انبثقت بينهما قصة حبّ طاغية، بَيْد أنّ الاصطدام بالأسئلة الوجودية الدّائمة، ربّما وقفت حائلًا حيال الطّريق النّهائي للسّعادة.

استثمرت الرّوائية آليات التّقنية الحديثة في التّواصل، عبر مواقع التّواصل الاجتماعي وشبكة الأنترنت الّتي أصبحت هاجسًا يوميًّا مخايلًا كعنصر تواصل رئيسي للبشرية في كلّ مكان، وهي هنا آلية تغيّر من القيم المألوفة في التّواصل: «كان اللّقاء يتجدّد وكلّ يوم عبر وسائل التّواصل الاجتماعي، يتقابلان ويتسامران ويضحكان، لا ثالث بينهما سوى السّعادة»، وهنا تطرح الكاتبة سؤالًا مدهشًا: «أيُعقل أن يكون الحبّ خارج نطاق الأنترنت حبًّا واقعيًّا بعد الآن»؟

تنطوي الرّواية على قدر كبير من الأسئلة، وقدر كبير أيضًا من الحوارات المتأملة فلسفيًّا واجتماعيًّا ونفسيًّا، وهو ما جعل الرّواية أكثر ثراءً وأكثر تأمّلًا في إشكاليات الإنسان ووجوده المعرفي والحضاري، فضلًا على البحث عن تجاوز الصّراعات الدّاخلية إزاء الوجود.

استخدمت الرّوائية آلية المنظور من الخارج بحيث تَعِي الأحداث عبر ضمائر الغائب، وهو ما يجعلها تحرّك الأحداث والمواقف، لأنّ هذا المنظور حملها إلى فضاءات أبعد من كون تجربتها الروائية الّتي

تحمل عنوانًا مخاتلًا: «ستحبّينَني يومًا» تعبّر عن حبّ أو علاقة حميمة بين شخصيّتَيْن، بحيث تصبّ في التّحليل الأخير في الجوهر الفلسفيّ المعرفي المتسائل. لذا، أدّت كثرة الأسئلة إلى جملة من الصّدمات الّتي ستوقظ القارىء وهو ما تقدّمه الكاتبة بشكلٍ بارعٍ منذ الأسطر الأولى للرّواية حتّى نهاياتها.

وإذا كانت الرّواية تتضمن قدرًا كبيرًا من المحتوى الدّلالي الباحث عن كُنهِ الحبّ والعلاقة مع الآخر وتصورات الأنثى عن الرّجل، فإنه يحتفي أيضًا برنينٍ سينتمنتاليّ دائمٍ تلخّصه مشاهد كثيرة في الرّواية كما في مشهد الاعتراف بالحبّ الّذي تشكّله بطلة روايتها «نيروز».

إن نورا مرعي لا تقف عند حدود العلاقة العاطفية بين شخصيتَي الرّواية الجوهريّتَيْن أو حتّى الشّخوص الثّانوية الأخرى، لكنّها تسعى إلى تعميق الهاجس الفلسفيّ عبر سرداتها، لتقدّم للقارىء كشوفها الرّائية في هذا الصّراع الدّائم والتّوتر المتسائل، كأنّها تصوغ دراما سرديّة إنسانيّة رحبة في فضائها وأخيلتها.

ومع هذه الصّياغة فإنّها تتكىء على رؤية شاعريّة جليّة في روايتها، فهي تركّز على شعريّة السّرد من بداية الرّواية إلى نهاياتها في مستوى سرديّ لا يتنازل عن فصحاه الرّائية، ولا يتخطّى إلى المستويات السّردية المحايدة، بل إن تشعير السّرد عبر صفحات الرّواية أفضى إلى وجود لغة تحتفي بالإطار الفلسفيّ والسّيكولوجيّ والأسطوريّ فضلًا عن

الإطار الشّعريّ الّذي تتشكّل فيه صور مشهديّة متعدّدة، وهو أسلوب اتّبعته الرّوائية نورا مرعي – وهي شاعرة أيضًا- في روايتها الأولى: «هذا هو قدري» الصادرة عن دار المؤلف، بيروت، ط.١، ٢٠١٣.

تذهب الكاتبة في هذه الرّواية بعيدًا، بحيث إنها تتخطّى الهموم والتّفاصيل اليوميّة إلى هموم أكثر تعالقًا ورسوخًا بالتّجربة الإنسانيّة المتأملة، وإلى إعادة تفكيك بعض المسلّمات الفكريّة الرّاسخة خصوصًا ما يتعالق منها بقيم الحبّ، والتّواصل مع الآخر، والصّراع النّفسي بين الذّكرى والحنين.

إن رواية «ستحبّينَني يومًا» رواية كشف، ورواية حوار، ورواية سؤال. ولعلّنا لا نقنع تمامًا بقراءة أوّلية إنّما سوف تحفّزنا أكثر كقرّاء على البحث الدّائم عن كُنهِ الوجود وعن نهاية النّهاية في سؤال لا ينقطع، وهواجس لا تحدّ، ومطلق متجدّد يبدأ من جديد كلّما انتهت القراءة واتّسعت الرّؤيا في خصوبتها وثرائها الدّلالي الرّحيب.

عبدالله السّمطي
شاعر وناقد من مصر
الرّياض– أغسطس ٢٠١٤

«يا مَنْ نسيتكَ، رحلْتَ ولم أغادرْكَ»

تجلس في المكتبة العامة، تراقب كلّ من حولها، وجوه عابسة، متمرّدة، وأخرى ضاحكة سعيدة.

أحضرت كتابًا فلسفيًّا لتطالعه، علّها تخفف شيئًا من نهمها إلى معرفة غياهب الحياة، وماورائياتها. إلى جانبها أحدهم يطالع كتابًا عن الأمراض العصبية والنّفسية، تنظر إليه بعينَيْن خائفتَيْن، والأفكار تعصف بعقلها، فلا تتوقف عند فكرة معيّنة.

جلست قرابة السّاعتَيْن، وعقارب السّاعة تتسارع فتسمع تكتكاتها الّتي تركض نحو الثّالثة، موعد مغادرتها المكتبة العامة.

الوقت يركض بسرعة، ستحين بعد لحظات حصّتها في المعهد، لتعليم مادة الفلسفة، تلك المادة الغريبة الّتي تحملها إلى عالم آخر، فتبعدها من الواقع لتحطّمها فوق أمواج نظرياتها القديمة والجديدة، وهي لا تسعى من وراء تعليمها هذه المادة إلى جاهٍ أو سلطة، بل تريد الوصول إلى الحقيقة المطلقة، والسّعادة المطلقة والحبّ المطلق، ويبقى سر الكون في عجز الإنسان عن بلوغ هذا المطلق، لأنه متى بلغها انتهى.

كانت دائمة التّفكير بهذه المواضيع، وهي متيقّنة أنّ بلوغ الإنسان إلى معرفتها يعني انتهاء الحياة؛ فلو عرف الإنسان متى يموت وكيف يموت مثلًا، فما نفع ذلك؟ ألا نكون قد بلغنا النّهاية؟ والحياة لا تكون في نهايتها بل في بدايتها، وعبر بحث الإنسان عن الحقيقة، حقيقة كلّ شيء.

أخذت تتصفح كتابها قبل الدّخول إلى حصّتها، حيث ستشير اليوم إلى موضوع مهمّ؛ وهو أنّ العالم غير متناهٍ، والإنسان عاجز عن تصور حدوده وأبعاده، وستلفت نظر طلابها إلى أنّ الإنسان لايزال قاصرًا في فهم سرّ الكون العظيم، ولم يدرِ الحقيقة بَعد.

دقّت السّاعة الثّالثة، دخلت صفّها الّذي عمّه الهدوء الفلسفيّ، فالكلّ يفكّر ويأخذ الحصة بجدّيتها، وضعت أوراقها على الطّاولة، وكتبت على اللّوح:

«نهاية النّهاية»...

أثارت الجملة الطّلاب، وأخذ كلّ واحد يعبّر عن رأيه بها، إلى أن انبرى طالب _ هو نفسه مَنْ كان يجلس إلى جانبها في المكتبة يتصفح كتابًا في علم النّفس _ لم يكن من طلّابها، لكنّه آثر أن يحضر محاضراتها رغبة منه في التّعرف عن كثب إلى عالم الفلسفة، علّه يفهم بضع جمل خطتها المعلمة يومًا ما على أحد الكتب الّذي استعاره من بعدها، وأثارت انتباهه أفكارها، إذ كتبت يومها:

«لا يعرف المولود الجديد وقت ولادته، بل يعرفها من أهله، فكيف لو مات والداه باكرًا؟».

وفي مكان آخر، كتبت بخط يدها على الهامش:

«الإنسان كفرد، لا يعرف مصيره، فما هو السّر العظيم الكامن خلف زمانه؟ وهل ستسجل الحياة له التّعاسة أم السّعادة؟ وإن لم يدرك ما يطمح للوصول إليه، فما هو التّفوق العظيم الّذي وصل إليه؟».

ولم تنتهِ عباراتها الغريبة إذ كتبت أيضًا المزيد منها: «التّفاهة عقبة الوجود، والانخراط في الحديث التّافة يؤدّي بنا إلى عدم فهم ذلك الوجود، والتّورط فيه أكبر خطأ يبعدنا من الطّمأنينة الذّاتية والسّلام الأبدي».

أثارت تلك الأسئلة فكره، والعبارة الأخيرة دفعته إلى معرفة أن من يخاطبها ليست بامرأة عادية، يمكن أن يوقع بها، لذا قرر الدّخول إلى حصصها، كي يجيب عن أسئلتها، أو ربّما ظنّ أنّه يملك الإجابة. هو الّذي درس طوال حياته علم النّفس، ودخل إلى عالم الوعي واللاوعي، الآن رأى التّوافق بين أسئلته وأسئلتها.

لم يكن يعرف أن كيانها بالكامل سيشدّه، فعالمها مغاير لعالمه، وحياتها الفلسفية تسير إلى أسئلة غيبية ربما لم تستهوِه من قبل، لكنّه أحبّ طريقتها في التّفكير، وما كتاباتها تلك إلا دليل على تميّزها كامرأة لها مكانتها ووجودها القيّم وفكرها المنير.

لم يكن يعرف حين دخل للمرة الأولى، أنّها ستكون سيّدة حياته،

وسيّدة كلّ لحظة من تفكيره، وستدفعه إلى التّفكير بأسئلتها الوجودية ليقرر التّفتيش عن إجابات تليق بمستوى إشكالياتها، ربّما تأخذه عملية بحثه في رحلة إلى عالم الذّات، رحلة شبيهة برحلات السّندباد الّذي عاد رابحًا منها.

في ذلك اليوم، جلس يتأمّلها وهي تشرح فكرتها من خلال جملة واحدة كتبتها «نهاية النّهاية»، وما لبث أن رفع إصبعه ليعطيها رأيه قائلًا:

«النّهاية هي ضياع الأيّام، هي روزنامة تساقط التّاريخ منها، ليغيب الزّمان وتكون النّهاية».

لفتت نظرها الإجابة، إذ شعرت بأنه ينحت فكره نحتًا ليصل إلى مثل هذا التّفكير، من أين له هذه الجرأة أن يدخل إلى صفّها، ويأخذ مكان تلاميذها، ويبدأ بالتّفكير والتّأمل؟

انتهت الحصة، خرجت من الصّف، وقد استفزّها حضوره، فمن يكون عابر السّبيل الّذي دخل قطارها الفلسفي، وطرح ذلك السّؤال في ختام الحصة؟

«الإنسان كفرد، لا يعرف مصيره، فما هو السّر العظيم الكامن خلف زمنه؟».

إنّه السّؤال نفسه الّذي يساورها منذ مدّة، كيف له أن يطرح السّؤال ذاته؟ وهل يعقل ذلك؟

وصلت إلى منزلها، وهي تفكّر بهذا التّشابه الغريب والتّقارب الحاد، لكنّها كانت منزعجة منه، بطرحه القضية الّتي تبحث فيها منذ مدّة.

فكرة حائرة دفعتها إلى الوقوع ما بين الشّك واليقين، وصارت كلّ دقيقة تمرّ بها كجلمود يتساقط من الأعلى، ليهبط بها على الأرض، فتتزلزل من الدّاخل، وتضيع في دهاليز فكرها. لم يتسنَّ لها فهم ما يجري، ذلك الغموض الّذي يحيط بذلك الرّجل ويقذف بها إلى سواحل الخوف جراء شعور مرعب، ورأسها يدور مثل الكرة الضّائعة في الملعب.

أمسكت بحقيبتها، لتفتح كتابها الفلسفي الّذي استعارته من المكتبة العامة، لتكتشف أنّ أمينة السّر رشا قد أخطأت بإعطائها الكتاب، إذ أعطتها كتابًا عن علم نفس الأطفال.

استغربت ما جرى، ولم تعطِ الموضوع أيّ أهمية، وقد أبعدها رنين الهاتف من التّفكير بالموضوع، فقد توجّهت لتقرأ الرّسالة الّتي وصلتها على الخلوي:

«أنا أتوجع لغيابكِ..».

رسالة غريبة لم تعرف ممن، ولم تدرك رقم المتصل الحقيقي، كما أنّها لم تجرّب الاتصال به، فهي لا تهتمّ بهذه الحركات، فالحبّ بالنّسبة إليها حالة من الحرية المطلقة، لا حدود له ولا يقف عند رسالة عادية قد تكون من مُزعجين كُثر محيطين بها في الحياة.

أغضبها ما جرى معها خلال النّهار، من جلوسها إلى جانب هذا الرّجل في المكتبة العامة وصولًا إلى دخوله صفّها، وطرحه إشكاليتها الخاصة، والكتاب الخطأ الّذي أحضرته بالإضافة إلى الرّسالة الهاتفية

الّتي وصلتها. وفي لحظة غضب مع الزّمن، قررت أن تجلس إلى حاسوبها الخاص لتتابع بحثها في موضوع «الإنسان والمطلق»، وإذ بطلب صداقة من الرّجل ذاته، يخترق الصّفحة الحاسوبية بكلمة حبّ تاريخية، ستنتج حلمًا خاصًا لاحقًا.

لا تردّ على رسائله المتكررة يوميًا، ولكنّها تنبهر أمام ما يكتبه، فقد فاقت حروف رسائله الألف، تتسمّر دائمًا أمام كلماته وتسأل نفسها:

«ماذا يريد منّي؟»

أخذ يدخل أوقات وحدتها، كأنّه يدخل معبدًا إلهيًّا، فتارة يطرح عليها أسئلة استفزازية، وتارة أخرى يكتب رسائل عشق وغرام، وما بينهما هي لا تنبس ببنت شفة.

سمحت له بالدّخول إلى صومعتها الغريبة، وأن يرافق صمتها وأيامها وكتاباتها وهواجسها وهمومها، ولكنّها كانت تراقب تحركاته كاملة سواء في المعهد أو من وراء شاشة حاسوبها. ولا تنسى تلك الومضات اللّغوية الّتي خرجت من قبو الألفاظ المشعّة بالضّياء، عندما ارتطم كتفه بكتفها أثناء خروجها من باب المعهد الكبير، إذ قال لها:

«لجيش الطّيور زقزقته الغريبة يستمدّها من صفير عينَيْك البرّاقتيْن، ولا شيء يُنبئ بالسّكينة عندما نلتقي ببعضنا بعضًا، لأن لقاءات الصّدفة أشبه بعلاقة الكائنات بعضها ببعض، علاقة حقيقية واقعية غير مصطنعة، لا يمكن أن تكون كذبة تاريخية مستجدّة من دون جذور لها، ليست مجرد خيالات تغيب وتختفي، بل قمة الجرأة البطولية أن ألتقي بمن أفكّر به وأدّعي أن لقاءنا كان صدفة...».

عندها أجابته بعنفوان المرأة: «لو كنت تدّعي أن لقاءنا صدفة، وأن تلامس كتفيْنا صدفة أيضًا، إذًا أنت تعيش حالة تجسيد اللاوعي في الواقع، ولا أظنّ أنك ستنجح بعد الآن، كون الإنسان يعيش الحقيقة دائمًا، ولا يمكن أن يكون جزءًا من الكذبة الكبرى، حتى لو ذاق حلاوتها للمرة الأولى، وعرف طعمها اللّذيذ...».

ـ «الصّراع معك صراع جميل يا حلوتي، قائم مذ أن تعرفت بك، فأنا أدور في فلكك، وهي سمة شيطانية لن أفشل في ممارستها، فكما الشّمس استسلمت في عتمة اللّيل البهيم واختفت عن الشّروق، سأستسلم في عتمات لَيلِكِ وأغطّي وجهك لأتطهر بوجودك، وأمسح التّاريخ القديم... لن أقع في خطيئة وجودية معك، ولن تفضح لآلئ عينيْك أسرارنا، ولن أفسد عليك يومك، ولكن ثقي بي أنني لن أغرب من حياتك ما حَيِيْتِ..».

ـ «شيء مرعب بالنّسبة إليّ أن تتحداني، ولكن ثق يا رجل الصّباح أنّك لن تبدّل بكلامك المستفزّ فكري».

يأخذها طيفه إلى زقاق فكري ضيّق، يضيق بقوة حتّى يخنقها، فتلفظ آخر أنفاسها مع الرّاحة، وكأنّ القدر يشير إليها بومضة جديدة سترافقها وتبدّل مسيرها ومسيرتها. شيء ما لا يبدو طبيعيًا، كأنّ الحبّ يعاندها من جديد، لأنه يعرف أنها لن تحبّ بقدر ما تريد أن تعيش الواقع أمام مرأى عينيْها، من دون أن تشغل تفكيرها، ولكن مَن يكون ذلك الكائن الخرافي الّذي أخافها بحديثه وأقلق تفكيرها؟

يرافقها ظلّه دائمًا، تدغدغ آذانها حروفه الصّماء، ليصير الحاسوب أفضل مرافق لها. أيّ بهجة كانت تعصف بها حين تكلّمه وحين لا تكلّمه، وحين تنظر إلى جمله وتعابيره المتراكمة فوق صفحتها في أكثر أوقاتها انشغالًا وعبثًا مع الفراغ.

منذ ذلك الوقت لم يعد يفارقها، وصارت لا تقوى على عدم الشّعور به، وعدم حضوره اليومي الّذي يثير حزنها.

إنّه الرّجل الّذي يحادثها، رجل في عينَيْه يمتزج الألم بالفرح، ألم الحكايات الفارغة الّتي مرّ بها، وفرح لقائه بحبيبته، الّتي ينبثق العالم بكامله من بين جنباتها.

مثل جوعها اليومي، تركض صوب هاتفها حينًا، وصوب حاسوبها أحيانًا لالتهام وجبة حبّ كبيرة زرعها خلف صفحتها، أخذت تجمعها في ملفٍ خزّنت فيه أقوى كلماته إثارة، وما يلائمها منها لتستيقظ ليلًا، وتقرأ ما يجعلها تتخيّل وجوده الدّائم إلى جانبها. وعندما تصحو عند الصّباح تشعر بضخامة هذا الكائن الجاثم على صدرها، تحاول أن تطرده بقوة، لكن من المستحيل أن تتحرّر منه. وفي ذات صباح، قالت لها رفيقتها:

«تريدين أن تتنفّسي حبًّا جديدًا، تخلّي عن نزوعك الطّفولي».

أجابتها: «ليس نزوعًا طفوليًّا، بل خوفًا من المجهول، لا أريد أن أؤسس لمملكة الفوضى القائمة على علاقة مفزعة ستخيفني بزئيرها، وسترتعد لها مفاصلي إن تحوّلت إلى عصفور جريح بين يدَيْه».

ـ «ما الّذي يدفعك إلى الظّن به».

ـ «لا أدري، الشّك يغلبني، وهناك رغبة داخلية في الرّفض، وكأنّ حالات الانكسار الّتي أصابتني قديمًا، جعلتني في نزاع خفي، حوّلني إلى كائنة بشرية عاجزة ومشلولة المشاعر».

ـ «ادخلي عالم الأبعاد، وثقي أنّك ستتخذين الحالة المناسبة، انظري إلى العالم من وجهة نظر إيجابية، بعض القوارب الصّغيرة تصل إلى الشّاطئ بأمان وتتغلّب على همجية الماء وعنفوانه، كوني مثل القارب تدركين طريق الوصول إلى برّ الأمان بعد صراع لا بدّ منه، فلا تتهادي بوحشية، وشقّي عباب الحياة بأنفاسك المتمرّدة ولا تحرقي قلبك هكذا».

ـ «أخاف على نفسي كثيرًا من الوقوع في حفرة سحيقة، أو أن أكون طعمًا للسّمكة».

ـ «نيروز، لن تكوني يا صديقتي سوى سيّدة الوجود وأميرة الأكوان».

تركتها صديقتها سارا وحيدة، لأنّ وقت عملها قد حان، أما هي فقد لفّها حنين قديم استعادته برباطة جأش؛ إنّها أجمل لحظات الشّعور، عندما يصير الماضي حاضرًا فيها ويلمع كعقد ألماسيّ أمامها، ويكسّر عادة الضّجر المرافقة لها.

تمشي على الضّفة الأخرى من الشّارع، عالم بكامله يدور حولها.

شهوة الإسفلت تستفزّها للاستمرار في المشي، ومراقبة بعض الرّجال الّذين لا يحرمون أنفسهم من معاكستها، كأن لا عمل لهم سوى التهام النّساء بأعينهم الشّرسة وكلماتهم الشّيطانية، وكأنّ مخالبهم ألغت إنسانيتهم. هؤلاء الرّجال كلّهم الّذين يحادثونها، ليسوا مثله، كلامهم كلّه لغو فارغ أمام كلمة واحدة منه. إنّهم كتبوا لها حروفًا صمّاء طارت في الفراغ، وهو كتب في صميم قلبها... إنّهم كالأرانب يطاردون النّساء إلى أن يلوذوا بأنفسهم إلى أيّ مكان مع امرأة يشترونها لتفقد ذاتها، وتضيع منها القوة في لحظة خنوع وغدر مع الزّمن، بينما هي لن تفقد ذاتها في حجرات الفقدان الأليم، ولن تستسلم لأحد، فهي في علاقة مع اللّذة الذّاتية، إنها لذة البحث والكتابة. لقد استسلمت إليهما، واكتفت بهما، وقد عوضاها عن لذائذ الدّنيا بكاملها، مارست أقوى علاقاتها اللّغوية، لكي تنسى كل مَنْ حولها في هذا العالم المشتت، المليء بالضّياع، لتعيش مع ذاتها في أبعاد متعددة، وتحظى بأهمية لم تعتدْ عليها سابقًا.

ولكن الرّوح تملك مخالب الأسر، لا تدري كيف تتشبّث في نفسها، تلك القوة الخفية الّتي لا تنفع فيها محاولات الآنا من التّفوق على الأسر. لم تتوقع يومًا أن يأسرها، أو أن تسجن نفسها في داخله... كانت متحررة من الرّجال كلّهم إلا منه. هي الّتي توقّعت يومًا أن تجذب مَنْ تشاء صوبها، وتحيط نفسها بمَنْ تشاء، وتبعد منها مَن تشاء

عبر خيط بسيط قد ملكته... لكنّه صار يحلّق فوق حياتها، بكلمة يهزّ مشاعرها ويبدّل كيانها، وهي لا تقوى على مقاومته، فقد حلّ فيها، وفي روحها وكيانها ووجودها معًا...

هل تركع طلبًا للنّجدة؟ أو تمتثل لجملته الأولى الشّهيرة، الّتي ما إن صدّت حبّه لها حتّى قال:

«ستحبّينني يومًا!!».

وفي عزلتها التّامة، توجّهت منادية ربّها:

ـ «أريد أن أكون أنا، ولا أريد مشاركة أحد لذاتي، لا أريد أن يمتلكني أحد».

تلك إحدى إشكالياتها الفلسفية، فكلّ كائن يقوم بتوجيه حياته صوب التّملك والامتلاك، ويحسم مسألة ماهيته وماهية وجوده ومعنى حياته بناء على ما يملكه، وما الّذي بإمكانه أن يملكه. فكل شيء قابل للتّملك، خصوصًا الأشياء المادية، ولكنها ليست مادة، وهل من الممكن أن يصبح الإنسان مادة للتّملك؟ ربّما نعم، ولكن الفرد لا يتشجع على الإعلان للآخر أنّه ملك له، ولكنه قد يكون أكثر حذرًا، ويخبر بأنّه مهتم به ومسؤول عنه. وكأنه مصادر من قبله ومملوك من الآخر.

لكنها الإنسانة الّتي لا تقبل بأن تكون ملكًا للآخر، وترى الاهتمام بها مشروعًا مستقبليًّا لضربة روحية أو صدمة قلبية قد تتعرض لها، وهي

لا تعي إن كان وجوده الفجائي إلى جانبها وتقرّبه منها ومحاولة امتلاك قلبها تصرفًا سليمًا.

مَن يوضّح لها الخط الدّقيق الفاصل بين تصرفها السّليم وغير السّليم؟ بين مناجاتها لربّها ومناجاتها لقلبها، كيف لم تنتبه له طوال هذه السّنوات؟ مَن يشرح لها سيكولوجية هذا الرّجل حتّى تتمكن من فهمه أكثر، ومعرفة السّبب القوي وراء شدّه لها؟ فما ذنبها إن كانت متصالحة كثيرًا مع نفسها، وتحبّ ذاتها، وتعيش معها المحبّة والقناعة والرّضا، وهي بغنى عن الغير، لأنّها تدرك أنّ حبّ الآخر والتّصالح معه وتقديس روعة حضوره، هذه الأمور كلّها تحتاج إلى أن تنبع من ذاتها الإنسانية. لكنّه يمتلك سحرًا غريبًا، أتكون تحت وقع سحرٍ أم أنّ جنّية الحبّ قد تملكّتها؟

إنّ مصالحتها الكبيرة لذاتها مدّة من الزّمن، جعلتها تخفي جراحها بصمت عن الجميع، حتّى لا تعاني العذاب مرة أخرى، أو تعيش صدمة أخرى في حياتها، فالصّدمات الّتي توالت عليها منذ الصّغر تكفيها. ولم تترك تلك الجراح سوى ابتسامة قوية تخفي خلفها وجعًا دفينًا، ما يجعلها تشعّ بطاقةٍ غريبةٍ، لتمتلئ حياتها بسحرٍ إنسانيّ وعاطفيّ وإبداعيّ لا مثيل له، ولا يمكن مَن حولها إلا أن يشعر به.

ستمنع نفسها بكلّ قوّة من الوقوع في حبّه، هكذا قررت، ولكن لم يكن قرارها نهائيًّا، لأن رسائله المتكررة أخذت تؤثر فيها، لتتذكّر

تلك اللّحظة القديمة الّتي جعلتها تتمناه لها، وتبدو هذه اللّحظة ماثلة أمامها، كأنّها تعيد إحياءها كعنقاء تجدّد وجعها على وتر اللّحظة الزّمنية القاهرة، لحظة الاستسلام الكبرى.

هو يظنّ أنّ الحبّ كائن عجيب، يصنع المعجزات، وهو يؤمن بالمعجزة القادمة:

«ستحبّينني يومًا»..!!

تدغدغ هذه العبارة مسامعها وتحيي ذاكرتها وذكرياتها، لتكتب بماء الوجْدِ شعورًا غريبًا لامسها حين قال تلك العبارة بالذّات. ما هذه الثّقة بالنّفس؟ إلامَ مرّدها؟ ولِمَ هو نفسه من دون سائر الرّجال؟

هي نفسها الّتي آمنت بالحبّ، واعتقدت في مراهقتها أنّ حبّها سيصنع المعجزة الكبيرة، فيكون نصيبها الزّواج ممن اختاره قلبها قبل عقلها، ولكن الحياة اختارته لغيرها. وبين بُعْدِهِ وصدّهِ وهجرِهِ لها، حاكت نسيج حكاية أخرى، حكاية الوجع الدّفين، فحبّها كان نكتة أجادت إضحاكها لمرحلة زمنية طويلة، وها هي تصير جزءًا من مأساتها الكونية.

تذكر تلك اللّقاءات القديمة العنيفة والسّاحقة، ذلك الصّوت الدّاخلي الّذي يعيد إلى مسامعها أركان قصة هدّها النّسيان، ودمّرها البعاد. قصة أثارت فزعها من الحياة، بعدما تحدّت أباها وأمّها والعالم أجمع. وكانت العواقب وخيمة، إذ بقيت شهورًا وليالي تبكي بحرقة

ولوعة، عندما عكّرت الخيانة سمو حبّها، من أحبّته خانها متذرعًا بحججٍ واهيةٍ، ما دفعها إلى أن تستعير قوة العالم كي تتصل به وتنهي كل شيء:

«خلقنا لنحبّ بعضنا بعضًا، لا لنخون روحيْنا، ونهايتنا أوشكت».

تتذكّر ما قاله مذهولًا من معرفتها بالخبر: «أنا لم أخنك، لقد كانت حاجات جسدية معيّنة أخذتها».

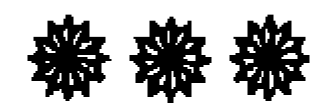
ـ «أيّ حاجات جسدية دفعته إلى خيانة أسمى ما أعطانا إياه الله، أيّ فكر يمتلكه هذا الرّجل، لقد أغدق الكون علينا بسمفونية رائعة عزفناها معًا، واستغرقنا في عزفها حتّى شبعنا، وعشنا السّكون الرّوحي وعفاف الحب وعذريته، ولكن خيطًا رفيعًا كان فاصلًا بين الحبّ واللاحبّ، جعلنا نضيع في تجاويف قاتلة ومدمرة».

انتهت علاقتهما كما انتهت اللّقاءات الّتي أحيت عظامها الرّميمة على مدار سنوات مراهقتها، وتسرّب إلى قلبها إحساس زريّ، إذ تلمّظت بالمرارة، ولم تنشف دموعها. حاولت أن تهرب من أغلاله، ولكن قلبها المحطم وعجزها عن تقبّل الوضع، جعلها في حالة نقمة متفاقمة على كلّ رجل قد تلتقي به.

هو مختلف، هكذا يخبرها قلبها، إنّه مختلف عن الرّجال كلّهم، هو البطل الأسطوري الّذي سيقتل نفسه إن ماتت محبوبته. هو العاشق المتيّم، والمقتول في الحياة بين جنبات قلبها، إنّه المفتون بها، والعاجز

أمام إغراءاتها المتكررة له على مدار سنة كاملة بالرّفض والصّد واللامبالاة بحجة العمل وبحجة استمرار العلاقة المهنية، وبحجة أنّ الفلسفة وعلم النّفس لن يلتقيا أبدًا.

ولكن أيّ علاقة مهنية تتكلم عليها؟ لقد صار كيانها، وكلّ نبضة قلب تصرخ باسمه عاليًا.



«معكَ، سأخلقُ حبّي العذري الإلكتروني وأرسلُ
ذبذباتِ الحنينِ عبرَ أسلاكِ حاسوبي الآلي
لتنهمرَ شهواتنا خلفَ شاشةٍ جمعتْنا وفرّقَتْنا في
آنٍ معًا»

رنّة حاسوبها الفايسبوكية دفعتها إلى أن تقفز من مكانها، لتعالج جوعها المسائي، إنّه يتسمّر خلف شاشة صغيرة، وينتظر أن تدخل فعليًّا، كي يبدأ سمفونية العزف على أوتار الحبّ...

قررت أن تداهمه برسالة أخرى، قبل أن يفاجئها برسالة ثانية. أخذت تطقطق على جهازها بسرعة البرق، كأنّها تسرّع الزّمان وتحاول أن تكسب الوقت، أو كأنّ الوقت يكاد يهرب من بين أناملها الّتي لم تكتب سابقًا سوى بضع عبارات شكر لأشخاص، قدّموا لها مساندات عديدة، ولكن هذه المرة تغيّر الوضع، وصارت تكتب رسالة غرامية. أيعقل أن تحبّه؟ أو أن تبدّل استراتيجية حياتها، هي الّتي أتقنت تمثيل الأدوار كلّها إلا دور العاشقة المتيّمة، اليوم تعيش حالة جديدة، وصراعًا مختلفًا.

شعرت بعد سطور عديدة بعذاب الذّاكرة ووجعها الكامن خلف سطور الزّمن، وقفز إلى مخيلتها ما عاشته في زمن ماض جميل. الحبّ الأوّل، وهل يخفى على أحد ذلك، إنّه الحب الّذي لا يتكرر، ولن يتكرر لأنّه حب طفولي فيه نزف غريب. أيعود هذا الحب؟

إنّه السّؤال الصّعب والمسألة الأصعب في الحياة. إنّها معادلة لم تنجح في حلّها، ولا في فهمها، وكأنّها مسألة فلسفية غامضة، لا حل لها. ولا تعتقد أن قوانين الدّنيا كلّها ستبيّن لها فيزيائية هذه المعادلة، أو ربما طبيعة كيميائيتها. فكان لها في الختام القرار أن تكمل حياتها من دون أن تنتظر أحدًا، فالانتظار صفة لا تلائمها، وعليها أن تعيش لذاتها، وأن تتقمّص دور العنيدة الرّافضة للواقع، هذا الدّور يليق بما مرّت به، وبمنحى تفكيرها، وبخاصة أنّها عاشت مشاعر اللامبالاة تجاه الآخر. ولا أسوأ من أن تجد المرأة اللامبالاة من أقرب النّاس إلى قلبها، وأن تحتاج إلى شخص فلا تجده معها، أو تعيش الحالة ذاتها الّتي رفضتها دائمًا!!

إن مسألة الحاجة إلى الآخرين مسألة شخصية، فالسّعادة تتشكل من خلال الرّضا النّاتج عن تلبية الحاجة. والاستثناءات الوحيدة تؤذي الإنسان، عندما تصير الحاجة إلى الآخر متعلقة بتدميره، كأن يبتعد من دون سبب، أو يتركها وحيدة تعاني. ذلك التّدمير الدّاخلي لا يقوى أي أحد على التّغلب عليه إلا بعد صراع ذكي مع الألم، كي تتمّ السّيطرة على تلك المشاعر.

إنّها تؤمن بأن الزّمن يدور والتّاريخ يعيد نفسه، لكنّها لم تتوقع أن تعيش حالة أرغمها الزّمن عليها. لم تكن تعرف أنّها ستكون بطلة ذلك المشهد القديم.

تخرج هذه اللّيلة من صفحتها منهزمة كمثل انهزام الجندي في

حربه مع العدو، تتلوى حزينة، وتناجي نفسها وتعطي توقّعات إضافية لذاتها، فهي في معركة جديدة مع رجل يشبهها.

إنّه الرّجل الّذي يجعلها تتأوه، ويجعلها تبتسم، إنّه من يرافق كل لحظة من لحظاتها كظلّها، لا يتركها وحيدة أبدًا. إنّه من استمع إلى غضبها، وشجون قلبها، ومزايا أيّامها، إنّه من بقي إلى جانبها حتّى اللّحظة الأخيرة.. كيف تتركه، كيف تتقرّب منه؟ لا تدري...

أغلقت جهازها، وبكت بحرقة فقد شعرت باللااطمئنان يتغلغل إلى كيانها، حين كلّمته ذلك اليوم، وعلى الرّغم من كلماته اللّطيفة، الّتي أبعدت منها هذا الشّعور لوقت وجيز، وأدّت إلى أن تتلاشى المضامين المخيفة كلها الّتي شكّلها ببشاشة روحه، وجمالية قلبه.

نظرت إلى صورته الّتي احتفظت بها يومًا ما، من دون أن تدري أنّه سيكون رجل حاسوبها، إذ شكّلت صورته جزءًا أساسيًا من الشّاشة الكبيرة. تراقبها كلّما شعرت بوحدتها. وهي الآن تشعر بشيء يتحرّك في داخلها، أيكون دقات ولادة جديدة لحبّ أبدي، أم مجرد شعور ملتهب يغيّر كيانها؟

لقد اكتشفت أخيرًا أن منطق الحياة غريب، ويخالف المنطق الّذي آمنت به غير مرة، لقد دفعت ثمنًا غاليًا بسبب رفضها الحبّ، وغير مرة قررت أن لا تجعل الرّجل في حياتها كائنًا حيًّا... لكنّ هذا الرّجل مختلف، لا يشبه غيره.

امتزجت تلك اللّحظة بشيء من الكآبة، كآبة لم تستطع أن تتحكم

بها أو تسيطر عليها، وارتأت أن تعيد فتح جهازها، كي تهدأ قليلًا مما أصابها. فالمرأة عندما تصاب بلحظة يأس أو بكآبة غريبة، تصير مثل الرّيشة في مهبّ الرّيح، يحرّكها الإنسان الآخر كيفما يشاء يمينًا وشمالًا.

لقد تمكّن هذا الرّجل من أن يعيد تكوينها كما أراد يومًا، فدفعها إلى أن تبقى ساعات طويلة أمام تلك الشّاشة تراقب تصرفاته، وتنتظر كلمة منه، أو ترتقب دخوله إلى تلك الشّاشة الّتي كوّنت من خلالها علاقة غريبة من نوعها.

هو الرّجل الّذي خاطب كيانها، وحرّك فيها مشاعر الأنوثة كلّها، وجعلها تعيش روعة الحياة، وجمالية الكون، هو الرّجل الّذي خُلِقَ لها، إذ اتفقا في أفكارهما ومشاعرهما وحياتهما وحتّى في قدرهما وإشكالياتهما وأسئلة الكيان والوجود الّتي أثارتهما، وحاولا حلّها والبحث عنها مطولًا. وكم بادرتهما إشارات في الحياة، جعلتهما يقفان أمامها، ويستفسران عن واقعية ما يصادفانه.

إنّها إشارات تكررت لمرّات عديدة... كان آخرها حين اتصل بها كي يطمئنّ عليها، وإذ به يكتشف أنهما خرجا من المنزل في الوقت نفسه، وتناولا وجبة الطّعام ذاتها، وتوجّها صوب البحر، فكيف كان ذلك؟

هو الّذي يسكن بعيدًا منها، وهي تسكن بعيدًا منه، كيف عاشا الحالة نفسها؟ كيف توجها صوب البحر لأنهما شعرا بالاختناق من

دون أن يخبرا بعضهما بعضًا، أيعقل أن يشعرا بالانزعاج مع بعضهما، ويخرجا مع بعضهما من المنزل، ويتوجها إلى البحر، وقد فصلتهما مدينة كاملة؟

تلك الإشارات اللاواعية يعرفها القدر، ويضعهما فيها، وهما يعيشان الحالة بانبهار شديد، ورغبة في أن يستمرا في مواجهة القدر، ليريا ما سيفعله فيهما... إلى أين سيأخذهما، وكيف سيسيّرهما....؟؟

انتهت يومياتهما هكذا...

مرّ أسبوع على تعارفهما، والقدر يفتح أوراقه لهما ورقة بعد ورقة، كل يوم يكتشفان أن التّوافق قد وصل إلى حالاته القصوى بينهما...

هو وهي جسدان في روح واحد، وضعهما القدر فجأة راسمًا لهما خيوطًا ذهبية، وحكاية غريبة، واتفاقًا أغرب....

وما بين حوار وآخر، يظهر لهما روعة لقائهما، كي يخفّفا عن بعضهما بعضًا حالات الجنون الّتي أصابت حياتهما، والرّوتين الّذي ضرب أيامهما.

وأخذ يستمع لها دائمًا، كشهريار زمانه، لا يريد من اللّيل أن ينتهي، حتّى لا تتوقف شهرزاد عن سرد حكاياتها الأليمة، واكتشف من خلال سردها لتلك الحكايات، أنّها ولدت من تجارب الحياة ومآسيها، وتغلّبت عليها بقدرة عقلية كبيرة وقوة ونشاط، لا نصادفه في أيّ كائن حي آخر.. هو أعجب بنشاطها غير المعتاد، وقدرتها على قتل لحظات

الفراغ، ووعيها اللاطبيعي كي تصل ببراعة إلى مقاصدها ومراميها في الحياة.

وكم يتمنى أي رجل أن يحصل على مثل تلك الأنثى...! وأن يمتلكها كأنّه امتلك الدّنيا كلّها!

لا تنسى يوم قال لها:

«لا تتركي الحياة كحبل مشدود على صدرك، ولا تجعلي باب حياتك مقفلًا، يجب في أقصى حالات اليأس القاتل أن تدوسي بقدمك على كلّ من آذاك بخفّة واستهتار. دعيهم يعيشون في عِقَدِهِم النّفسية، وارفعي عن وجهك ملاءة الحزن، لتصلي إلى أعلى مراتب النّجاح».

_ «كيف أعيش هكذا»؟

_ «ربما تحتاجين إلى التمرّس، وإلى هزم الخوف القابع خلف حياتك، لا تكوني كالفأر فريسة سهلة، أو تبحثي عن جحر للتّخفي بعيدًا من الوجود. أنا لا أريد أن أغضبك، كما لا أريد أن أفقدك، أريدك قوية وأن تعيشي الحياة بحلوها ومرّها. لذا، انتشلي جسدك من وحل الأوهام، واجعلي المثوى الأخير لك هو الإحساس».

_ «وما شأني بهذا العبث الكلامي، استمر في الهذيان حتّى تشبع، فأنا لم يعد بإمكاني أن أستمع إلى المزيد من الهراء».

مضت الحكاية الّتي تحرّك المشاعر المطحونة تحت رحى الأوهام والقلق المصيري، مضت خلف جدران الزّمان، وما بين تعقيدات الحياة وصعوبات العمل، والانهماك بما لا يطاق من الأعمال

اليومية، كانت الصّدفة تفتح نوافذ الأمل صوبهما، كي يتعارفا بشكل رسمي، وتفتح لهما حوارات لم يسبق أن كانت، ميّزتها قوة العاطفة، وجمالية اللّغة وبلاغة الأدب....

لم ترفض حواره الأدبي حينًا والفلسفي حينًا آخر، على الرّغم من معانداتها المستمرة له. ولم يرفض هو كذلك حواراتها الغريبة والمعقّدة أحيانًا، وامتدّت الحوارات إلى أن صارت رسائل يومية صباحية ومسائية، تتدفّق في داخلها مشاعر رهيبة، وأخبار لا تحصى، وعادات وأسرار لا يمكن أن نقدّمها على طبق فضي، إلا لإنسان يجمعنا به أكثر من مجرد كلمات...

لقد اجتمعا على الحبّ والسّعادة، وهما خيطان رسمهما القدر بشجاعة ليبدّلهما، ويقرّبهما، ويقف جانبًا يراقب اصطدامهما الواعي بجزيئات حقيقية مع الحياة، بعيدًا من المشاكل اليومية، ومن الطّبق اليومي الرّوتيني، بعيدًا من الألم المسجّى على مسرح الحياة....

كان اللّقاء يتجدّد كل يوم عبر وسائل التّواصل الاجتماعي، يتقابلان ويتسامران ويضحكان لا ثالث بينهما سوى السّعادة، وكانا يغلقان الصّفحة على عهد جديد أن لا يفترقا، لأنّهما مذ أن ولدا كتب على جبينهما.... عاشقان، لهما نبض واحد، وجسد واحد وقدر واحد وحياة واحدة....

يضحكها كثيرًا، يثير شهية سعادتها، ولا تنسى صدى ضحكته الّتي لامست سحابات السّماء، عندما سألها عن اسمها وقالت له:

ـ «اسمي نيروز».

ـ نيروز!!! ما معنى اسمكِ؟ ومَنْ أطلق هذا الاسم عليك؟

ـ نيروز اسم فارسي، ويقصد به بداية يوم جديد، وهو أول يوم من أيّام السّنة الإيرانية، كما يعدّ أكبر الأعياد القومية للفرس. لقد أراد أبي أن يسمّيني اسمًا غريبًا، فكان ذلك. اسم يحمل بين ثناياه الحياة الجديدة الّتي أؤمن بها دومًا، والرّغبة في أن يكون يومي الجديد مليئًا بالأمل والسّعادة؛ فمع إشراقة شمس كلّ يوم تتفتّح أزاهير الأمل وتنبثق أقواس قزح تتدحرج فوق أحلامنا وآمالنا، لنقول لها كوني فتَكُنْ.

ـ وأنتِ، ستكونين أملي في كلّ يوم.

ـ اسمكِ، يا حبيبتي يحمل أجمل المعاني وألذ الآمال، ويليق باسمي أن يرتبط باسمك يومًا ما.

ـ خالد... ستبقى خالدًا في كياني وروحي أبد الدّهر، سيبقى اسمك يرفرف فوق سماواتي السّبع، لن تغيب أبدًا عن حياتي.

لن نموت ولن نشيخ، وسنعلن أمام الجميع أنّنا خالدان مع صياح ديك كلّ يوم جديد، وتراتيل شمس مع كلّ شروق، وزغردات عصافير الحبّ مع كلّ ولادة جديدة. فيا أملي في الحياة، سأعيشُ لكَ وبكَ ومعكَ.

«لا تشربْ وحدَكَ نخبَ وداعي
بل لنشربْ معًا نخبَ اللّقاءِ....»

كانت حصصها الفلسفية تزداد تعقيدًا وهو في تساؤلات دائمة حول طبيعة إشكالياتها المعقّدة. صارت تهمّه المطالعة أكثر، كي يصل إلى فهم وعيها الزّائد. لقد طرحت إشكالية جديدة. هل الإنسان بحاجة إلى امتلاك إنسان آخر؟ وهل تفضي هذه الحاجة إلى السّعادة؟ أم تعيقه وتؤذيه؟ علمًا أن طبيعة الإنسان الشّخصية ترغب بتحقيق الميول الخاصة به، والاقتراب من الغير كي يقود نفسه إلى السّعادة.

صار يتعمّد التّواجد الدّائم في صفّها كي يستمع إلى تحليلاتها الّتي يجدها في بعض الأوقات لا منطقية، وتجاوزاتها للحياة رغبة فقط في رفضها.

يستفزّها في طرح المزيد من الأسئلة علّه يشفي بعض هواجسه ثمّ يتركها وحيدة مع طلّابها ويذهب إلى عمله ليتابع يومه.

هكذا، يحبّ دائمًا أن يثيرها ويستفزّها ثمّ يتابع يومه بهدوء فكري لا مثيل له.

«أيعقلُ أن يكونَ الحبُّ خارج نطاقِ الأنترنت
حبًّا واقعيًّا بعد الآن؟»

بدأت علاقتها بالإنترنت مذ كانت في العشرين من عمرها، عندما أصرّت على مسايرة ركب الحضارة، والدّخول إلى تلك القرية الكونية، وفهم أكثر عالم التّكنولوجيا البديع كما كانت تصفه صديقتها يانا. ثمّ مع دخول الإنترنت بيتها، بدأت تتعرف إلى ذلك العالم الغريب، وتتقرّب من مفاهيمه الجديدة، كانت تجلس ما يقارب العشر ساعات أمام تلك الشّاشة الصّغيرة بحكم رغبتها بتكوين معارف مهمّة، وكانت هذه الحالة تثير والدها، فتخبره دائمًا أنّها تخلق من وحدتها رونقًا آخر في هذا العالم.

كوّنت مجموعتها الثّقافية والفكرية، وأخذت تتنقل بين الأعضاء كفراشة جذلى، تمدّ أحدهم بملاحظات نقدية، وتعطي الآخر رأيها بصواب ومن دون أيّ تعصب. وقد ظهرت شخصيتها بوضوح، فهي خفيفة الدّم، لطيفة، لها وقع خاص حين تدخل، يهبّ الأعضاء لإلقاء التّحية والسّلام، وهي بينهم تطلق الضّحكات الخفية، ولا تبالي بمعظم التّحيات، كونها لا تحبّذ تلك الأحاديث.

كانت تضحك من كلمات معظم الرّجال الّذين يحادثونها،

والّذين لا يصدّقون أن تظهر ليبدأوا بطرح الأفكار المنوّعة والأخبار الكثيرة كي يغروها بإجراء حديث معهم، وهي كأنّها أمام سلة فاكهة ملوّنة، بعض ثمارها ناضج وبعضها الآخر فج، فتختار أحدهم لتكلمه، غير عابئة بلا مبالاتها الحقيقية به، كونها اختارت طريقًا لنفسها، وأثبتت نظريتها الدّائمة بأنّ الرّجال كلّهم يشبهون بعضهم بعضًا، لن يتغيروا أو يتخلصوا من عقليتهم الشّرقية الّتي ترى المرأة سهلة التّناول متى أرادوا، يتقرّبون منها من دون أن يدروا أنّ المرأة القوية كمثل الأرزة الشّامخة، لا تهزّها الرّياح ولا تقتلها عواصف أفكارهم التّقليدية. وهي تملك صراحة وصدقًا يجعلانها تتغلّب على بدائية فكر أيّ رجل.

اكتفت في تلك اللّيلة من الأحاديث المملة، أمّا هؤلاء الرّجال الّذين يحادثونها، فكانوا عندها مجرد شريط مرّت فوق حروفهم كملاك يدرك مساوئهم وحسناتهم، وما أكثر الأولى وأقل الثّانية!

مع مرور الأيـام، صارت تكتفي بصديق واحد تحبّذ التكلّم معه، وتبادله بعض هموم حياتها، وصار هو يكتفي بها أيضًا من بين صديقاته، ويعترف لها أنّ مكانتها أكبر من أي واحدة تعرّف إليها. وهي دائمًا تضحك حين يخبرها بذلك لظنّها أن الرّجال كافة يكذبون بطريقة أو بأخرى.

حدّثها كثيرًا عن نفسه، عن مصاعب الحياة، وبدا لها رجلًا صدوقًا وغيورًا، إلا أنّها لم تستطع أن تعترف له بشيء عنها، قدّمت له مجموعة أكاذيب اعتاد قولها، فهي سعيدة ومكتفية بكلّ ما حولها، وهي راضية

عن عملها ومستواها المهني، وأبحاثها اللامتناهية عن العالم وتعقيداته والماورائيات والاختلاف ما بين العالم العلوي والآخر السّفلي. لكنّها لم تقل له إنّها مصابة بحزن أبديّ ينهش أعصابها، ويقبّل جبينها كل ليلة، كي يمارس عادته بأن ينظر إلى وجهها الحزين، وإلى دموعها المتلألئة فوق بياض شرشف سريرها. لم تخبره أنّها أسيرة هذه المعاناة، الّتي غلّفت حياتها ببؤس كبير. وأنّ الرّجل الّذي يبكيها هو الرّجل الّذي يحيط بها.

لم تكن تدري أنّ هذا العالم سيكون بمثابة مدخل إلى حياة أخرى رغبت بها دائمًا، وتمنّت الوصول إليها. هذا العالم قرّبها من رجل دخل حياتها كإنسان عاديّ، ليصير بعد ذلك أقرب من روحها إلى جسدها. لقد كانت تكلمه على العمل دائمًا، وتطلب منه مساندتها؛ لقد سحبته من وعيه، وجعلته أسير أفكارها، وهو ما بين أفكارها وأعمالها ضائع، لا يعي طريقة الوصول إليها. وكان كلما فتح بابًا معها، أغلقته من دون وعي ورحلت بلا عودة.

ذلك كان قدرها الأول الّذي مرّت به، ولكن ما ظنّته يومًا إنسانًا صار ملاكًا، يهتم بأدقّ تفاصيل حياتها، ويعلّق على أبسط جملها وتعابيرها، حتّى صارت تنتظر يوميًا حلول الصّباح لتتجه بخطوات سريعة صوب حاسوبها فتقرأ رسائله اليومية. لقد اعتادت عليه وكأنّه وجبة فطور لذيذة، إن لم تتناولها تشعر بالدّوار. لقد أحبّتْ لحظة الذّوبان في حروفه، لحظة انفكاكها واقعيًا عن العالم، لتدخل خياليًا

في عالمه فتستحضره، وتنام على كتفيه، وتخبره كم هي بحاجة إليه.... ليقول لها عن سرّ وجودها، وتغييرها لعاداته اليومية، عن رغبته في امتلاكها، وأن تكون امرأته وشريكة حرفه وحياته وعمله.

لقد انطفأت شعلة الحزن على ما يبدو مذ أن أعلنت رغبتها في أن تكون جزءًا من مسيرة ذلك الرّجل. رجل بملامح قوية، عيناه مسلّحتان ببريق غريب، حين تنظر إلى صورته يخال لها أنّه يخاطبها، ويقول لها:

«لا تخافي يا سيّدة حياتي، إنّك تنبضين في داخلي، اتركي أوهامك جانبًا، فأنا باقٍ على عهدي لك».

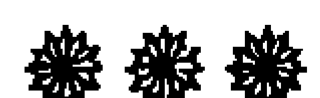
ما هذه الرّؤيا الّتي جعلتها تخاطبه، وكأنّه واقف أمامها. غريبة تلك الحالة. أبدأت تعيش أوهامًا جديدة؟ أم أنّ الحب طرق بابها الواسع؟ وأدخلها عالم هذا الرّجل الّذي كان يوقظها باكرًا حتّى تجلس معه صباحًا وراء شاشة صغيرة، يبادلها فنجان قهوته المرّة، ويرقبان مع بعضهما بعضًا انبلاج الشّمس ووداع الفجر لهما، في تحية مملوءة بالنّدى المتساقط على أكفّ زهر الياسمين، وقبل أن تتوجه إلى عملها، تراه ينهي كلامه بسرعة ليتوجه صوب الطّريق الرّئيس، ويقابلها هناك بنظرة حبّ، ويلقي عليها السّلام.

كان يرتقبها في أيّام كثيرة في المكتبة العامة، ويدعها تمارس عادتها بالقراءة من دون أن يزعجها، فهو مدرك أنّها امرأة عنيدة، لا تحبّ من يبدّل عاداتها، وكان ينتظر انتهاءها ويتوجه صوب صفّها

ليستمع إلى محاضراتها الثّائرة والّتي تجعله يغوص في عالم غامض برأيه، مميّز برأيها. فلطالما طرح عليها السّؤال ذاته، ما هي الفلسفة؟

وكانت إجابتها هي نفسها: الفلسفة هي التّغلغل في جوهر الأشياء، في الطّبيعة والرّوح من أجل الوصول إلى كنز عقلاني.

كان يتسابق في طرح الأسئلة عليها، ويعجبه ردّها وإصرارها على إفهامه ماهية الفلسفة وكنهها. وكأنّ العمر ولّى بسرعة، وهما يداهمان الوقت ويقاتلانه في استفسارات عديدة، وولوج عالم كبير. وكأنّ الخريف قد اقتحم حياتهما وسلة رسائلهما معًا، لتتساقط حروفهما فوق سطور الأوراق، وتضيع مع برودة أيّامهما وصقيع لحظاتهما.



وحدث أن اختارها المعهد في رحلة عملٍ إلى دبي لمدة شهر لنقل تجربتها في تعليم الفلسفة إلى معاهد في الخارج، وقد أوشكت على الرّفض بداية، لأنها مرهقة بسبب كثرة أعمالها، ولكن الفرصة تأتي مرة واحدة، ولا يمكنها أن ترفضها، فوافقت على مضض على أن تكون أيام سفرها لا تتعدى الشّهر.

كان وقع الخبر صاعقًا عليه، علمًا أن غيابها لن يطول، ولكنه لم يتوقع ذلك عندما سأل عنها في المعهد، قالوا له:

«إنّها غير موجودة، لقد سافرت إلى دبي».

أمام جمود الموقف وصدمة الغياب قرّر أن يلحق بها. فليس من الطّبيعي أن تسافر وحدها، ولا يمكنه أن يتركها تخوض هذه التّجربة من دونه.

كانت الرّحلة طويلة عانى فيها، وشعر بالقيد وبأن كل ما يفعله لها لا يليق بها، وبتصميم لا مثيل له، فقد أدرك أنّه ضحية حبّ قاتل. هو يعطيها أكثر من حقّها، وهي لا تبادله الحبّ ذاته. خاف أن ترفض

مقابلته، كما خاف من صدّها له. ولكنّه سيرمي بنفسه أمام شذرات قلقها، ليقتل لحظات الشّك ويبدّلها بيقين قوي.

في الصّباح الباكر، وصلت الطّائرة إلى مطار دبي الدّولي، وهناك شعر بنزعة غريبة تلامس صدره وتشعره بالضّيق، لا يملك قدرة الخلاص من سطوته، ولكنه أمام إقدامه وإحجامه كان لا بدّ من هذا التّصرف، علّه يثبت لها أنّها تحفته الثّمينة الّتي سيدفع فيها أغلى الأثمان، فبريق عينيها لا ينطفئ، وعنادها يزيد من إصراره على البقاء إلى جانبها، ليثبت لها من هو الرّجل الحقيقي، مدّعيًا أنّه مغاير عنهم.

وصل إلى الفندق، وطلب مفتاح غرفته، وعندما وصل اتصل بخدمة الزّبائن سائلًا عن رقم غرفتها، وكم أصيب بصدمة عندما عرف أن غرفتها مجاورة لغرفته والفاصل بينهما باب واحد. خطفته الأمواج الفكرية العاتية حينها، جلس القرفصاء مفكّرًا، كيف يعقل أن يرمي القدر بهذه الصّدفة العجيبة، أستصدق قوله أم تظنّه كاذبًا يخادعها برقم غرفته...؟ تساؤلات عديدة نزلت عليه وأشعرته بدوار وبحالة تلاشٍ، فهامَ في صحارى واسعة، لكنه نهض من تلك الأوهام وفرك عينيْه، ليصدق أن ما يعيشه حالة واقعية بل صدفة أخرى لها أسبابها القدرية.

اتّجه نحو النّافذة، ونظر إلى الخارج بوجه متجهم، كيف يوقف تلك العلاقة التي صارت محور حياته؟ يتابع التّفكير بقلق واضح، ثم لا يلبث أن يضحك عندما يتذكّر مرة أخرى أن غرفتها ملاصقة لغرفته.

اتصل بها من خطّه اللّبناني، وقال لها:

ـ «أين أنت الآن؟ وماذا تفعلين»؟

ـ «أنا في الفندق أرتاح من عناء يومي، لِمَ؟ هل هناك من خطب ما؟».

وإذا بها تسمع طرطقات خفيفة على باب الغرفة، تسأل:

ـ «من الطّارق»؟

فأجابها: «افتحي الباب يا سيّدة وجودي».

تفتح الباب وهي في حالة ذهول عجيب، هو يقف أمامها، لا أحد يستوعب أن يحضر رجل من بلدٍ إلى بلد آخر كي يثبت للمرأة مدى حبّه. تتسارع أنفاسها في حلقة سكون مفرغة، تنظر إليه وإلى بسمة سحرية لامست شفتيه، داهمتها بضعة تشنجات، ولم تعد تعرف ما تقول، يتصبّب العرق من جبينها خوفًا أم راحة، على الرغم من دوران عجلة المكيف على الدّوام، وتشعر كأنّها في نوبة صدمة. يغلي جسدها تحت جمرة المفاجأة الكبيرة، وتسأله:

ـ «لِمَ أتيت إلى هنا؟».

ـ «أريدك، أحبّك، أحتاج إلى حبّك، فكلّ ما تعانيه من عذابات هي من فعل الزّمن، ولقد أردت أن أبدّل نظرتك إلى هذا الزّمن، أتيت إلى هنا كي أثبت لك شيئًا واحدًا، فأنا مثل الطّفل بين يديك أحمل قلبًا يريد الحنان واحتلال مكانة عالية في نفسك، اجعليني حبيبًا حقيقيًّا لك، وردّي طعم الحياة الوردي، لوّني حلمك وحلمي واتركي جذور الماضي الواهنة تعبث بعيدًا منك».

ـ «لو أن الإنسان يملك مصيره لأوقفت عجلة زماني ورددتها إلى الخلف، كي أقطع كل شريان لقاء كان بيني وبينه، لقد آذاني كثيرًا وأذيت نفسي بعدها، والآن تأتي أنت لتعيد الأمور إلى مجراها، وتقتل تلك الموروثات القديمة، وتعيد إلى قلبي شيئًا مما افتقده».

ـ «أنا مَنْ افتقدتك، وسفرك الفجائي قتلني، لم أستطع أن أتحمّل بعدك فقررت السّفر إليك. لِمَ لَمْ تخبريني بقرار السّفر؟ لِمَ تعاملينني كأن لا وجود لي في حياتك؟».

ـ «يبدو أنني تمرّدت على الواقع، وفرّطت بلحظات جميلة كثيرة».

لم ينبس ببنت شفة، بل تسمّر في مكانه ينظر إليها، ودموع عينيها تنهمر على خدّيها، وقد لزم الصّمت المكان أمام تدفق تداعيات الذّاكرة.

نظر إلى وجهها النّاصع البياض، وتمنّى لو يتحرّر لسانه وجسده ونظره كي يقول لها كل ما يفكّر به. تعطّلت لغة الكلام أمام هالة سحرها، وعلى الرّغم من أنّ عمر المرأة مختلف عن عمر الرّجل، إلا أنّ السّنوات زادتها سحرًا وجمالًا، ووضع الزّمان لمساته الفريدة على خطوط وجهها، ليكون وجهًا من نور وضوء، صافٍ كصفحة سماء زرقاء، هادئ ولكنه فاحش الأنوثة في الوقت نفسه. لقد شعر بالعجز أمامها، أمام براءة عينيها الدّامعتين أبدًا. امرأة تفوق إيزيس جمالًا، إن تبسّمت شفتاها منحته الحياة لينهار كل ما هو صلب في داخله. وقد

زادها شعرها البنّي الطّويل روعة، بانسداله الدّائم فوق كتفيها، لتكون تلك المرأة شهية في حالاتها كلّها، ناضجة حتّى الثّمالة، قريبة من المثالية. إنّها أجمل حلم على واقع الأرض، تجعله في حالة توجس دائم نحوها.

نزلا إلى مطعم الفندق ليأكلا مع بعضهما، ويتحادثا بأمور عديدة. كانت تستمع إلى كلامه باستكانةٍ واضحةٍ، ولا تتكلّم، إذ أضاف الجو حالة من الصّمت الرّهيبة، كسر صمتها قائلًا:

ـ «جميل قميصك المزركش بحبيبات مرصعة تضيف إلى وجهك رونقًا مميزًا».

ابتسمت قائلة: «لا داعي للمجاملة».

ـ «أنا لا أجاملك، تلك الحقيقة».

انشغلا بأحاديث العمل أثناء ارتشافهما فنجانَي القهوة، حتّى داهمهما الوقت وقررت أن تصعد إلى غرفتها كي ترتاح، فغدًا يوم عمل ضخم، ولديها تحضيرات عديدة يجب أن تقوم بها قبل ذهابها إلى الملتقى الكبير.

صعدا مع بعضهما، فقام بالكبس بخفّة يده على الرّقم «١٨»، سألته حينها:

ـ «أغرفتك على الطّابق الثامن عشر؟».

أجابها: «نعم، إنّها كذلك».

خرجا من المصعد، وتوجها صوب غرفتيهما، لتتوقف أمام غرفتها ويقف إلى جانبها، نظرت إليه قائلة:

_ «أهذه غرفتك؟»

_ «نعم»..

فوجئت بذلك الأمر، وسألته: «ولكن كيف؟».

_ «لا تسأليني، بل اسألي القدر..»؟

_ «عن أي قدر تتكلم؟».

_ «أشياء كثيرة يضعها القدر أمامنا وأنت لا تنتبهين إليها، لا داعي للاختفاء خلف الأسئلة المبهمة، اسألي قلبك عن تلك الصّدفة الغريبة وهو بالتّأكيد سيعرف الإجابة».

دخلت غرفتها والأفكار تلسع دماغها بشرارتها المتطايرة، استلقت على سريرها الأبيض، وهي تصارع النّوم. وكيف تنام؟ والفاصل بينهما باب واحد، بعدما كان الفاصل مدينة كاملة، وحياة كاملة وشوارع وأزقة..

من ينتشلها من حالة الانقباض هذه؟ كيف يمكنه أن يضرب على وترها الحسّاس؟ كيف يأتي هذه المسافات كلّها كي يقابلها ويضعه القدر على طريقها وييسّر لهما درب اللّقاء؟

مواجهة ساخنة مع الحياة، ستتحمل خوضها بوخزاتها المؤلمة ولن تشعر بانكسار داخلي أو بإحباط يسري في جسدها.

ضربات خفيفة على باب غرفتها الدّاخلي، جعلتها تقفز من مكانها خائفة ومرتعبة: «مَنِ الطّارق»؟

_ «أنا...».

ـ «عسى خيرًا».

ـ «نعم، أريد التكلم معك».

توجّهت صوب غرفته يرافقها الخوف والتّوتر وشحنة من العدوانية الغريبة، ولكنها آثرت الدخول والمواجهة متفادية محاولات الرفض كلّها الّتي وجهها عقلها الباطني إليها.

جثمت أمامه على كرسي متحرك، وقد وضعت عباءة سوداء لتخفي معالم جسدها وخصوصًا أنّ المساء أجمل من النّهار، والرّائحة الزّكية اخترقت فتحتي الأنف؛ نظر إليها نظرة حبّ واضحة، ومن دون أي عقدة ذنب اقترب منها وبشهية واضحة استفزّته ودفعته إلى طبع قبلة على جبينها، خارقًا العادة، قائلًا:

ـ «ما زلت تعاصرين زمنًا جديدًا، ووفاء غريبًا وعلاقة صار من الضّروري إعلانها بمرسوم شرعي واعتراف أبدي، لا بدّ أن تريحيني بكلمة، بإيماءة، بأيّ حركة..».

ـ نظرت إليه، عبر وميض النّور الخافت المحيط بالغرفة، وقد تسلّقت إلى عروقها مشاعر قوية، انشقّت من الدّاخل ودفعت بذرات الحبّ إلى التّكون. أيعقل أن تحبّه؟

هناك شيء غريب لا شكّ فيه يحدث، هناك شحنات قوية تستيقظ بشكل لا يقبل الشّك أبدًا.

يجلس أمامها ويفرش بعض الأوراق البيضاء الّتي تظهر بضع

كلمات خطّها في غيابها، وباهتمام بالغ تمسك بكلّ ورقة وتقرأها بصوتها الرّقيق الجاذب، ثمّ تستلّ ورقة وتنقش عليها كلمة واحدة: «أحبّك».....

تتساءل كيف استسلمت له بهذه السّهولة، أيعقل أن يكون ساحرًا بدّل كيانها، فخضعت له، وهي الّتي أخضعت الكون كلّه لها؟

لكن اليوم التّاريخي حلّ، يوم القدر الآخر انجلى، لتعلن له في لحظة استسلام تاريخية عن مشاعر قلب جيّاش، ليعزف أنغامه السّاحرة على نايه الحزين الشّادي، فقد صارت له بعد أن شدا لها مشاعر قلبه، واستسلامه أمامها، للتخلّص من دبلوماسيتها معه، وتصير عاشقة له، تعرف كيف تجيب على معظم شكوكه، وتحاوره براحة عالية، لتقع أسيرة بين يديه.

لقد وقعت أسيرة حبّه، وأخذ جسدها كل يوم يزداد خفّة لأنها تشعر أنه ينتقل معها من مكان إلى آخر، تتنشق برئتيه وتصطاد همومه عن بعد، وتشعر بحزنه وألمه وحتّى مرضه تشاركه إياه...

ما هذه الصّدف المتكررة، والإشارات الّتي وضعت أمامهما؟

مذ أن عرفته تصالحت مع قلبها، وفكرها، وأعلنت رغبتها في تغيير بعض عادات الرّفض عندها، صارت تعبّر أكثر، وتخلق من حالات يومها تمرّدًا واضحًا على كونها، صارت تعشق اللّيل، وتستسلم لأحلامها لأنها تحويه... وجسدها لم يعد يتجمد أمام صوته فقد صار في داخلها...

سعيا منذ أن ولدا إلى الاختلاف، ولم ينتبها إلى أن اختلاف الآخر سر التّعب في الحياة، وأن التّوافق بين شخصَيْن سيخلق نجاحًا قويًّا. لقد استمرا في محاربة الجهل ومقاومة العناد، وحالات الجنون من قبل كل من يعيش حولهما، ولكن الزّمن الفاصل لن يستمرّ في نهش أحلامهما، فأخذ منهما وقتًا مقتطعًا من الحياة ومنحهما لحظة صفاء مع بعضهما، تلك اللّحظة كانت لحظة إعلان الحب الرّسمي على مذبح اللّغة.

آه، ما أجمل حبّه! يخبرها دائمًا أنّها مختلفة عن غيرها، وأنّها تعرف كيف تخترق مسامات حياته لتحيط به من كل حدب وصوب... ويقول لها:

«أنت جميلتي، وطفلتي، ترقصين في عيني كفراشة ملوّنة، تنتقلين من وريد إلى آخر، وتعزفين معزوفة جميلة فوق حياتي».

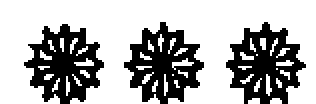
ـ «شيء مشترك بيننا، فأنتَ فراشة حياتي الّتي لوّنت دربي، ونشرت أجمل التّنقلات العشقية».

إنّها الحياة قدّمته إليها في فرصة ضائعة مع الزّمن، وقد حاولت اغتنامها لأنّها مرّت بخيبات متكررة مع الحياة، وهذه المرة لا تريد أن تقع ضحية خيبة جديدة، إنّها جريمة بحقّ نفسها، إن لم تخطُ خطوة تجاه هذا الرّجل، رجل المصير الآخر.

الحياة تحتاج منّا أن نقبض بكلتا يدينا عليها، وأن نعانقها حتّى تغدق علينا من جوائزها وأطايبها الشّيء الكثير، وهي الآن قدّمت

لها مفتاحًا جديدًا، وحبًّا جديدًا سيبدّلها من الدّاخل، وسيجعل يومها يعبق بنكهات طيّبة وأحاسيس مميزة بعدما مرّت بعام كامل من دون أن يشعرها أي شيء بالدّهشة، تلك الدّهشة الّتي تساورها كلما حان وقت اقترابها من حلمها ومن تحقيق أمنياتها. مرّت فترة باردة جدًا في حياتها، لم تقترب من أي شيء، اقتربت فقط من الخيبات المتلاحقة والأزمات المستمرة.

هي اليوم بحواسها الخمس تتحكم بقدر جديد، وتقبض عليه لتسيطر عليه، بعد أن عرف في الآونة الأخيرة كيف يسيطر عليها، ويحجبها عن ملذات الدّنيا. ويفسد عليها خططها المستقبلية لتستحيل بركانًا سينفجر يومًا ما، ويرمي بشعلاته النّيرانية وحممه على كل من يحيط بها، لتبقى أمنية واحدة قابلة للتّحقق، هي أن تكون ابنة الحياة فقط بطيبتها الّتي تشكّل جواز عبور إلى الحياة.



«بعضُ الحبِّ واهنٌ كمثلِ بيتِ العنكبوتِ...»

انتهت فترة عملها في الخارج، انتظرت معه إقلاع الطّائرة باتجاه الوطن. تهدأ الحركة على أرض المطار فالوقت متأخر جدًّا، وحركة الطّيران هادئة في مثل هذا الوقت، ولا تسمع سوى صياح طفل صغير يعانق أمّه مختلطًا بصوتها الهادئ وهي تطلب منه أن يهدأ. وكأنّ هدوء المساء ساعدها على أن تشعر به أكثر. تسمع النّداء بالتّوجه إلى البوابة رقم «١٦»، فيمسك بيدها كطفلة صغيرة ويتنفس الرّائحة في خلايا الجسد، لتوقظ في داخله روحًا جديدة، ووعيًا كبيرًا، ولكن بلا غاية محدّدة.

عادت إلى لبنان يرافقها في الطّائرة، وهي لا تصدق عينيها، ولا تدري كيف جرى لها كل هذا، ثمة صدفة لطيفة رمتها الحياة فيها، فحامت حولها، ولكن هذه الصّدفة كانت قد جرت قبلها مسائل عديدة مرّت بها بسلام، وكأنّها أقامت هدنة مع ذاتها، أن لا يؤثر بها أي رجل، لكن ما جرى في العاشر من تشرين من ذلك العام بدّل مجرى روايتها كاملة، وحياتها كلّها، وجعلها تكون كمن يقرب من مصطلحات الحب ليكتشفها من جديد، فتعبق الذّاكرة وتتناثر الذّكريات.. لكي تتأكد

أنّ كلّ ما قام به في الآونة الأخيرة، والوقفات المتتالية كلها لم تكن مجرد أعمال، بل كانت حبًّا بدرجة عالية، بفوران غريب لكريات الدّم الحمراء، وبحسابات شخصية جديدة.

حطّت الطّائرة على مدرج مطار بيروت الدّولي، نزلا منها متعانقيْن وتوجها صوب سيارة أجرة لتوصلها إلى منزلها أولًا كما اتفقا، ثم يعود إلى منزله بعد أن يطمئن عليها.

ودّعها قائلًا: «الحياة بعيدة منك أشبه بكهف مظلم عميق، لا أحتمله، هكذا أنا الآن. أنا في وادٍ وأنت في آخر، يجب أن أفعل شيئًا كي تكوني لي».

_ «لا تخف، ولا تدخل في صومعة الخوف كي لا تحلّق بأفكارك الغريبة عاليًا، ولا تعش في غيبوبة الحزن، فيكفينا مصاعب الحياة».

_ «لست خائفًا سوى من القدر، هذا القدر الّذي جمعنا، وقلب كراهيتك إلى حبّ، وقرّبنا من بعضنا في مواقف عديدة، كأننا في مسرح تمثيلي لا نصدّق كيف تيسّرت علاقتنا، وليتك تعودين قليلًا إلى الماضي فتفهمين عندها وجهة نظري، فلولا المكتبة العامة والبحث بين الكتب لما تعرّفت بك، فقد كنتِ متعطّشة إلى القراءة، وكنتُ متعطّشًا إليك وإلى النّظر إلى عنفوانك، كم ازددت نهمًا إليك يومها، وإلى كل ما تقومين به!»

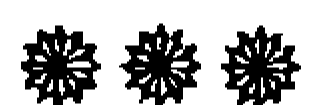
أذكر أنّك أمسكت الكتاب بخفّة عالية، وفتحت الصّفحة الأولى

كأنّك تفتحين قلبي صفحة صفحة، أيعقل أن أقع في غرامك من أجل كتاب فلسفي كنت تحملينه بين يديْك؟ مذ عرفتك وصار عقلي يقرأ وقلبي يعشق وفكري يقترب منك أكثر فأكثر.

_ احذر قدرنا واحذر لعنة الأقدار الّتي تصيب كل عاشقين، كنتُ بعيدة منك، وكنتَ قريبًا منّي، تنصت إلى خفقات قلبي وإلى تلك الصّفحات الّتي تفقّدها قلمي، ولم تترك المجال لأن يغيب وعيك لحظة عن أيّ حركة قمتُ بها، يا لك من رجلٍ مريض بي!

تبلع ريقها بهدوء، وتعبث بأنفها وتلاعب بضع خصلات من شعرها بحركة غريبة اعتادت عليها، تصعد إلى المبنى بخطوات متباطئة. ثمّ تنظر إلى الوراء وتودّعه بحركة صغيرة بيدها.

كان لا بدّ من هذا الإخفاق في الوداع، فهناك ما يثير الرّيب بينهما، لِمَ الخوف من القدر، ومن الفقدان المتكرر؟



ينشقّ نور الصّباح من خلف النّافذة الزّجاجية بغشاء هادئ تغلّفه حرارة الشّمس. خرجت إلى شرفتها بعدما شعرت أنّها مسجونة بين أربعة جدران. تناولت فطورها في صمت رهيب، وراقبت هاتفها من وقت لآخر. هناك شيء خفي يحدث في داخلها، شيء ما ينبئها بأمر غريب سيجري معها، مخاوف المجهول لم تستطع أن تعرف كنهها، حتّى الفلسفات القديمة كلّها الّتي درّستها لم تمكّنها من القيام من أتون الغرق في أحداث مبهمة.

تتربّص بها الأفكار، وتسرح معها كالقطيع الواهن عندما يسير مسافات بعيدة في حقول خضراء شاسعة بحثًا عن زاد أو ماء. لا تفكّر في شيء، وإذ بها تعلن بإحدى الجمل عن اشتياقها وإحساسها لطول وقت غيابه، وعندما رنّ الهاتف كإشارة لوصول رسالة، ركضت بسرعة لتقرأها:

ـ «إنني مشغول اليوم، تعرفين النّاس في العيادة يروحون ويجيئون، ولا أستطيع ترك المكان من دون مراقبة فعلية، ومن دون الاستماع إلى شكاوى وآهات، ولكنني أريد أن أقول لك إنّ طيفك

لم يبرح يحيط بي، مذ أن وصلت إلى المكان. الكلّ من حولي لاحظ ابتسامتي الجديدة، وعرف أن مزاجي هادئ. وأنت كيف حالك»؟

بخفة أناملها طبعت رسالة الاطمئنان ردًّا عليه:

ـ «أنا سعيدة برسالتك هذه، وبالمفاجأة اللّطيفة الّتي أحضرتها لي اليوم. كان مفروضًا أن يمرّ يومي بسلام، فإذا به يمرّ بمشاعر حلوة».

لم تتجاوز السّاعة الخامسة، وأشعة الشمس مازالت حادّة، على الرّغم من أننا في فصل الخريف الّذي شارف على الانتهاء. كان لا بدّ لها من التّوجه إلى المنزل بعد يوم عمل متعب، ومحاضرات كثيرة ألقتها على مسامع طلّابها الّذين لا يكتفون بما تقوله، بل يرغبون في الغوص أكثر والبحث الكثير، في وقتٍ صار همّها كلّه ينصب على هاتفها والرّسائل، الّتي قرّبت المسافات مع ذلك الرّجل، الّذي آثر أن يقترب منها فعليًّا بعد هدنة مع الزّمن كانت فاشلة.

هي الّتي تمرّدت دائمًا على المجتمع وعلى الحب وعلى الرّجال، صار لزامًا عليها أن تكون خاضعة لحبّه لتعبر إلى ضفة أخرى بقناعة واتزان واضحيْن. هذه الضّفة لن تكون إلا عبر جسر يجعلها تستردّ أنفاسها، مدججة بقوة تجعلها تتغلب على كلّ ما ألمّ بها. كيف لا؟ وقد أخذتها أمواج الحب العاتية عند فوهة محيط جميل، ينزف وريده عشقًا، خطف روحها المخنوقة، بعدما أصيبت مراهقتها بمأزق وجودي مزّقت أشرعة النّجاة الخاصة بها، فلم تتمكن من التّغلب على العقبات، بلا خسائر فادحة دفعتها من سنين عمرها.

تنتظره ليلًا، لتحدثه حتّى الرّمق الأخير من اللّيل، ولا تشبع. تريح صدرها من عناء النّهار، وتحضّر كوب النّيسكافيه بلا حليب كما تحبّه، وتجلس أمام جهازها، ترتشفه بهدوء تام، وتكتب له رسالتها. ومع كلّ حرف ينبض قلبها، ومع كلّ كلمة تضيع عن الحياة لتكتشف أنّها معه تخطّ أولى إشارات القدر بشكل غريب. تضغط على زر الإرسال، وترسلها بتحدٍّ جديد أوجدته الحياة. فهل تتحدّى نفسها أم الطّبيعة أم القدر؟

جميل أن تتحدى نفسها والطّبيعة في آن معًا، لأن الحياة من دون تحدّ بلا طعم ولا جدوى. وقد بدأ التّحدي الأكبر مذ أن أعلنت له عن مشاعرها اليتيمة، الّتي شعرت بها في اليوم الأول لتعرّفها به، ولكنّها آثرت عدم إعلانها كي لا تقع في فخّ جديد مع الحياة. إنّ النّاس قد يختلفون فيما بينهم في زمن الحب، منهم من يتقبّله بسرعة، ومنهم من يحتاج إلى وقت كبير ليعلنه، هكذا كانت قصتها معه، قصة تعرّضت لإشارات عديدة شبيهة بإشارات زمن الآلهة، حتّى تحقّقت بعد مرورها بمخاض عسير جدًّا مع الأيّام. وها هي الآن تشعر بفرح عارم يلفّ صدرها، هو مزيج من الغبطة والقلق، والتّحرر أيضًا. إنّها سفينة النّجاة نقلتها إلى عوالم الطّيبات والشّهوات المتنوّعة، فأشعلت نيرانها، ولامست شجيرات عفّتها ليترعرع في حضنها عشب الحب النّدي.

تعيش مع القلق من الزّمن المجهول والمستقبل غير المعروف، والغبطة من ارتعاشات الجسد أمام شعور الحب الطّفولي، والتّحرر

من سجون الحياة وزنزانتها الكبيرة، وقضبانها الّتي كانت تشدّ على صدرها، كلما اقتربت من تحديد هدفها.

اكتشفت من أحاديثها معه أنّه شبيهها في التّصرفات والذّكريات، وعرفت حجم الألم المواكب له وعاشت تفاصيل أيّامه الماضية، وأبصرت معه ارتعاشات العمر الّذي يمرّ بسرعة.

تذكر عندما سألته في بداءة علاقتهما عن عمره، لا تعرف لِمَ أرادت وقتها أن تصل إلى تفاصيل يحقّ لها معرفتها، فوضعها أمام حزورة جديدة مع الحياة، لتدرك عمره بمفردها... ومن دون وعي قالت:

ـ عمرك سبعة وثلاثون.

ـ لا، إنني أصغر.. قد تكون الحياة كبّرتني بسرعة، وجعلتني رجلًا أتحمّل مسؤوليات كثيرة، ولكن عمري خمسة وثلاثون فقط.

شعرت حينها بالرّاحة لتقارب عمرها من عمره، وأيقظت الإجابة في نفسها، العديد من الاستفسارات الّتي جرّبت طرحها عليه، لتفهم أكثر حياته الماضية. ومثل رجل الشّرطة أخذت تطرح الكثير من الأسئلة، وتمارس تحقيقها معه، فأيقظته من غفوة طويلة مع الزّمن، ليبدأ بقصّ حكاياته لها كراوٍ متمكّن من السّرد لكلّ أحداث حياته، وكان مع كل خبر جديد يضيء زاوية من زوايا علاقتهما، ليتقاربا أكثر. وكأن يدًا خفية امتدّت إليهما، لتوقظهما من نومة أهل الكهف، ولتقول لهما:

إنكما ولدتما لبعضكما، فكونا .... كونا....

مرّت الأيّام بسرعة، توطّدت علاقتهما كثيرًا، سارا معًا، نسجا مستقبل حياتهما معًا، وعلى مدار ذلك الوقت فتح لها خزانة أسراره، واستخرج منها درر الحزن المتلألئة في أنحاء جسده، ولم يكن صعبًا عليها أن تفتح رزمة كبيرة من الأحزان المكدّسة، كي تعرضها أمامه بشريط أسود كبير لفّ معظم جوانب حياتها.. وتحت أكوام الأخبار الّتي لا تحصى، نشأت أقوى علاقة، وأجمل قصّة. ولكم كانت دهشتها كبيرة، حين أخبرها بأنّه متزوج.

صعقت بل شعرت كأنّ هزّة قويّة أصابت جسدها، هي الّتي لم تتوقع أن يكون متزوجًا، خصوصًا أنّ معظم أوقاته يقضيها أمام شاشة الحاسوب، فكيف يعقل ذلك؟ المشهد القديم والجديد يرتطمان ببعضهما بعضًا، ذاكرة قديمة مهترئة تعاود ترميم جدرانها، وتهاجمها بأنيابها الكاسرة. سألته بغضب: كيف ذلك؟

_ صمت، ولم يجب، بل اكتفى بالقول، إنّها قصة طويلة ولا بدّ أنّ أسردها لك يومًا ما.

_ أين هي الآن؟

_ مسافرة.

_ ما حكايتك معي إذًا؟

_ لم أعشها بعد...

_ إنك كاذب، ومخادع.. وأنا لا أحبّ حكايات الخداع.

ـ إهدئي، أرجوك... إنّ الحياة تجبرنا على أن نعيش ما لا نحلم به...

ـ ولكنها زوجتك، الحياة لا تجبرك على امتلاك شخص لا تريده، الحاجة تفضي إلى تملك من نحبّ لنشعر بالرّاحة إلى جانبه. أنت تحبّها فلا تكذب عليّ....

أنهت كلامها حائرة، غاضبة، بعد أن شعرت بصداع رهيب يلفّ رأسها، لم تستطع الجلوس على أريكتها المفضلة. أخذت تمشي في الغرفة بشكل غريب، ثم ما لبثت أن داعبت مفاتيح البيانو المرمي منذ زمن في زاوية المنزل، عزفت وبكت، ترنّمت بترنيمات حزينة وكلمات يائسة. صرخت بأعلى صوتها:

ـ كيف جرحتني؟ كيف...؟!

في ذلك النّهار، لفّها الحزن، وكأنها تتعطّر به للمرة الأولى، وبين ضوع الحبّ العابق بالزّنبق والياسمين، فكّت شريط حياتها كاملًا، ليفكّ الحزن شريطه أيضًا، وتضيع بكتابات متنوعة على صفحة بيضاء، آثرت أن تكتب عليها غضبها بدءًا من يومي ميلادهما المتقاربين، وصولًا إلى محتوى حياته السّري، وعزاؤها الوحيد هو الألم. كيف دمّر كل شيء؟ وقتل أجمل اللّحظات؟ هو الّذي عشق الياسمين وأهداها إياها قائلًا:

«الياسمين زهرة قنوعة، كلما أحببتها، جعلت حياتك أجمل... ولأنك جعلتِ حياتي أجمل ستكونين ياسمينتي... كم أودّ أن يفوح عطرك الدّائم فوق حياتي»!

دمعة واحدة من دمعاتها فرّت، لأنّ عينيها المملوءتين محبّة، لا يمكن لهما إلا أن تعبّرا عن حزنهما لما سمعته..

لقد ظنّت لمدة سنة أنّه رجل يعيش حياة مميزة، يسافر ويكتب ويضحك ويحبّ وينعم بحياة فريدة في نوعها. ولكن الأيّام كشفت لها بدقة وتمعن، أنّها لم تحسن التّقدير. وكان أن بدأت تقرأه بشكل أفضل وأوضح، تقرأ الكلمات وما وراء الكلمات كي لا تسيء التّقدير مرة أخرى، لتعرف كيف ستستمر تلك العلاقة الفاشلة كما أسمتها قبل أن تغلق سماعة الهاتف بقوة.

جلست في حالة تأمل ذاتي، وتذكّرت أنّ الإنسان الحكيم هو بطبيعته من ينتصر على مشاعره حتّى يمتلئ بالنّور. فيجب أن لا تترك بقعة الظّلام تسيطر عليها.

❋❋❋

انتظرها في ذلك اليوم في المكتبة العامة، لكنّها لم تأتِ. كان كلما سمع صوت قدم، يظنّ أنّها ستدخل بعد قليل بفستانها المزركش الّذي لطالما لفت نظره، وطلب منها غير مرة ارتداءه. للمرة الأولى لا تمارس العادة الّتي يحبّها قلبها وعقلها في آنٍ معًا. ذهب إلى المعهد، وفوجئ بغيابها، فظنّ أنّ أمرًا سيئًا حدث لها.

اتصل بها ولكن من دون جدوى، فرنّة الهاتف تصل إلى آخرها ولا أحد يردّ. حزن كثيرًا لأنّها صارت بالنّسبة إليه الوجود، والوجود صار صدى لكينونتها، وقد أزهر عبير الحبّ في كيانه مذ أن تعرّف

بها. واليوم، لامس الحزن أطراف قلبه، ولم يعد يقوى على فعل شيء، فكان القرار بزيارتها، خصوصًا أنّ موعد سفره قد حان.

اليوم الأخير من أيام سفره، هو اليوم الّذي حمل أكبر مشاعر جمعتهما. تفتّح قلبها عليه وجنّت بتلات الغرام بينهما، وأعلنت له حين فتحت باب منزلها ورأته واقفًا خلفه، حزينًا، مكتئبًا، وكأنّ هموم الدّنيا كلّها على كتفيه، قائلة:

ـ «إنّ الحبّ انتصر، وإنّها لا تقوى على فراقه».

ـ نظر إليها نظرة حبّ، لم يتمالك نفسه وقد طوّقه الخوف من خسارتها، ومع ارتشافه كلماتها لان ريقه، وتراقصت شفتاه بابتسامة خفيفة.

وما هي إلا برهة حتى دخلا حلقة فارغة، لا خصام فيها ولا تعاطف... وحده الصّمت حليفهما...

هو الآن المشرّد في غابة مخيفة ما بين الخوف من خسارتها الأبدية أو البقاء معها من دون أن تدرك زوجته حبّه لها.... وكأنّه تائه في غابة موحشة لا يعرف أطراف الخروج منها، أيعتب على نفسه أم على قلبه أم على الزّمن؟

وهي تئنّ وحيدة على أطراف رصيف حياة قاسية جرّدتها من هنيهات السّعادة، وحرمتها منها على مدار خطوات حياتها كاملة في غابة بشرية، لا تستطيع تخطّيها بسهولة.

اقترب منها ليقتل تلك الأفكار الجهنمية كلّها الّتي عصفت بهما، وطبع قبلة ساخنة على وجنتيها، كي لا تبقى تعيش ضربات فكرية عنيفة، ولتحترق بلظى العشق. وودّعها قائلًا:

«تفاصيلك أعشقها، فلا تمارسي جلدك الذّاتي على نفسك، اتركي الأيّام تفعل بنا ما تشاء، وأنا على يقين من أنّ الله معنا».

ـ «ليتنا كنّا....».

ـ «لا تقوليها، أرجوك، أنا أريدك...».

أغلقت باب بيتها، بعدما أخذت قطرات البرودة تداعب جسدها تحت ضربات دقات قلبها المتكررة، وانفرجت ابتسامة خفيفة من بين شفتيْها. عادت إلى سريرها وحدّقت في لوحة صغيرة، تبدو أنّها الأقرب إلى قلبها، إلى أن اخترق نور القمر شعاع روحها، وأنعم عليها بخصوبة ذهنية جعلها تحلّق عاليًا. هذه الأشياء كلّها أشعرتها بقشعريرة غريبة وارتجاف مفاصلها لتنفر من الغطاء السّريري الأبيض، وتتوجه صوب هاتفها، وتهبط أصابعها فوق مفاتيح الهاتف وتتصل به.

الرّنة الأولى، الرّنة الثّانية.... الخط مشغول.

لم تكن تجرؤ على البوح بمثل هذه التّصرفات لأحد، فأخذت تهذي وتهلوس وتتلفظ بكلمات غير مفهومة، لتعبّر عن غضبها، أكانت تستطيع أن تتلفظ بكلمة خيانة له... لا بالطّبع؛ فالموت أهون من أن تقول له تلك الكلمة....

أغلقت جفنيها في انكسار مريع مع الزّمن، ونامت.

استيقظ السّاعة السّادسة صباحًا لكي يراسلها قبل ذهابها إلى عملها، وأرسل لها صورته الّتي تشعّ نورًا وضياء، وكتب لها:

ـ حبيبتي، آسف على عدم ردي البارحة، فقد كنت كسائح غريب في بيتي، لا أقوى على الكلام معك ولا معها. دعينا من هذا الموضوع، انتبهي إلى نفسك واسعي إلى الوصول، وليكن شعاع قلبي دليلك في النّجاح، وليبقَ مسار دربك عابقًا بالسّعادة، فعندها فقط أكون سعيدًا، وانتظريني، فأنا عائد إلى حضن عينيك، وإلى مملكة حبّك، وسأكون لك عاشقًا وحبيبًا وزوجًا...

التقطت كلماته أصداء اليقين في نفسها، فأخرجت الشّك من داخلها، الّذي تردّد في قلبها، ربما كتب لها ذلك لأنّه قرأ القلق في عينيها في آخر لقاء لهما، فحاول أن يبدّده، قاطعًا الشّك باليقين.

ـ أنا لكِ، ولن أكون لغيرك.

تتردّد هذه الكلمات في فكرها، وتغلي الأسئلة القلقة مجددًا، ولكنها تؤثر عدم إدخاله في حوارات مجهولة الهوية، ولتترك الحياة تسير وفقًا لما تريده. أمّا حقيقة زواجه المجهولة، فلم تقوَ على معرفة الأمر، وعدّت نفسها قوية وغنية بالكنوز الأرضية، الّتي لا بدّ أن تحصل عليها عبر مزيد من السّعي، والّتي ستجعلها تنسى الحقيقة المرّة الّتي أخبرها إيّاها.

مرّ أسبوع ببطء غير معتاد، انشغلت فيه بالتّحضير لمحاضراتها

الجديدة، وأبحاثها الكثيرة، أمّا طلابها المستفزّون لها دائمًا بأسئلتهم الكثيرة، فقد أثاروا في آخر محاضراتها تساؤلات غير معتادة، علّها تتفرّس في الكشف عنها، فقد كانوا يتساءلون عن كيف نقترب من الله؟

جعلتها تلك الأسئلة تنزلق بخطوات حثيثة فوق جمل شائكة بدهشة وغرابة لم تعهدهما، وما كانت إلا أن أجابتهم: «لا يمكن الاقتراب من الله عبر المنطق بل عبر الحبّ. فالحبّ يفتح القلب على جمال الوجود، وعلى كل ما يحيط بنا من أشياء عظيمة. وتلك العظمة هي الله. والله قريب منّا إلى أبعد الحدود، فقط علينا أنّ نتحلّى بالحب. فلا تكونوا فارغين، وفي خواء داخلي، وكونوا واعين للبهاء والبركات العظيمة ونعمة الوجود».

خرجت من المحاضرة، وكأنّها تحمل كنز الألماس الّذي لا ينضب، فقد أقنعتهم بفكرتها، وجعلتهم يوقنون أهمية وجودهم، وأن يتحلوا بالحبّ الّذي لا يمكن أن ينتزع منهم الكنز الحقيقي، فقد صرنا سطحيين كثيرًا في حياتنا، منذ أن دخلت تلك التّقنيات الحديثة وأبعدتنا عمّن يحيطون بنا، فلم نعد نؤمن بالدّاخل، وبما هو باطني في الوجود، وصرنا نتحدّث بالتّرهات لأنّ الخارج انفصل عن الدّاخل.

توجّهت صوب البحر فهي بحاجة إلى التّأمل، وتحتاج إلى الابتعاد عن البيت حيث تسكن الأبواب هناك، وتسجنها في الدّاخل، بينما هي بحاجة إلى الاسترخاء العميق، ولأنّ البحر يشكّل التّربة السّليمة كي يحدث التّأمل السّليم. جلست على الشّاطئ تراقب كل

ما يحدث من حولها: امرأة تتمشى بحراسة كلبها الشّخصي، عاشقان سارحان في عالم مجهول، على الطّريق المقابلة ضجة السّيارات... ولكن لا وجود لما قد يسبّب لها الانزعاج أو التّشتت. فقط جفاف عاطفي وصوت داخلي متناغم يصدران، ما يدفعها إلى أن تأخذ نفسًا عميقًا. تحتاج إلى من يثري جسدها بكلمات تحشّد قواها العاطفية، ولكن أين هو الآن؟

معها....

إن المرأة لا تفرّط بالزّوج إن كان يمتلك أدنى مواصفات الرّجل، فكيف إن كان يمتلك معظمها... كاريزما عالية، ثقة بالنّفس لا مثيل لها، عينان برّاقتان تشعّان حنانًا ولهفة... حضور اجتماعي فاعل، روح تزخرف أينما حلّت بالعطاء... ونفسه طيّبة في حالات العتمة الكاملة... يده معطاء، لا يرى في حياته السّواد، فطريقه دائمًا مفعمة بالأمل والبياض النّاصع، وإن تكلّم هزّ من يقف إلى جانبه كما تهزّ الشّجرة لتسقط ثمارًا كثيرة، هكذا هو، ثمراته المتساقطة ناضجة... يجري حديثه الاختصاصي مجرى الدّم في الجسد، وإن غاب انطفأت أنواره وكأنّ العالم يفرح به ومعه.

مجنونة تلك المرأة لو تركته، بل تكون فاقدة عقلها.

جمعت وعيها بكل ما جرى لها قبل سفره، وبرسائله القليلة أثناء سفره بحجة كثرة انشغاله بالأعمال والمقابلات الشّخصية. وقعت صريعة ذلك الحب، فارتفع ضغط دمها، هل هي غبية إلى هذا الحدّ،

كي تعلّق نفسها برجل متزوج؟ هل تسمح له بعد عودته أن يستمرّ في علاقته معها؟ هل يعقل أن تستمرّ في جهلها وظلمتها عن حقيقة زوجته الحاضرة الغائبة عن حياته؟ كيف تكفّر عن ذنبها؟

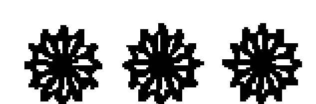
أسئلة كثيرة من دون إجابة محددة، دفعتها إلى الشّعور بالعذاب، ولكن الحبّ قادر على أن يضع كل شيء جانبًا، قادر على الإصغاء بصمت إلى وجعها، من دون أي رغبة بالتّفسير، فقد صار في داخلها كعلاقة التّنفس بالجسد.

عادت إلى منزلها، تحمل اللاإجابة واللاشعور، قد تكون ضحية مشاعرها المختلطة. وكانت كطفلة صغيرة تغالب دموعها، وتكسر أنياب حزنها، خصوصًا بعد سفره الفجائي ليومين من دون أن يخبرها بحجة أنه لا يريد الإكثار من حالات حزنها.

أي حالات حزن يتكلم عليها؟ لقد اعتصر الذّبول رحيق حياتي، وتركني أتخبّط وحيدة ما بين وجع الغياب ووجع القرب.

أمسكت ورقة بيضاء وبخشخشة صغيرة صارعت القلم ليخرج بضعة حروف كتبتها بعجرفة واضحة:

«قربك وهم وبعدك وهم وما بينهما وهم لا ينطفئ».



«لا تمارسوا طقوسَ الذّكرياتِ القديمة
فوقَ رحيلي»

دقّت السّاعة الثّامنة مساء، ساعة صعوده إلى طائرته، وأخذت تترقب بهدوء كلماته الّتي أرسلها على هاتفها الشّخصي، والّتي تسبق وصوله إلى مطار بيروت الدّولي. تمسك بكل حرف وتودّعه وكأنّها تقول له:

ـ أنا في أروع حالات اليقظة على الرّغم من نعاسي وتعبي، هذا كلّه لأنني على مقربة من لقائي بك، وسماعي صوتك، وكأنني أقع تحت خدر مغناطيسي يشدّني صوبك.

ودّعها، قائلًا:

ـ سأصعد إلى الطّائرة الآن، وألتقيك على خير عندما أصل. نامي بهدوء واحلمي بي، ولا تتضايقي، فأمامنا حياة جديدة، وأنا أريد أن أكون سيّد حياتك، وانسي قلق الحياة كلّه، فغباء محض أن لا تمتلئي بالحبّ بعدما أهملته مدّة طويلة من الزّمن.

ضاعت في التّفكير، تتلمّس وعده، وتنتظر اقتراب الوقت لوصوله، كلماته العشقية تهدر في أذنيها، وتضيع لوهلة عن الحياة،

تسعى إلى فكّ رموز الحياة وغرابتها، وكأن أفكارها متصلة بأفكاره، فقد اعتادت أن تكتب ما يريد تجسيده، وهو يكتب ما تفكّر به دائمًا.

هذا يحدث في الأحلام ربما، في عالم اللاوعي، ولكن معهما القاعدة قد قلبت وتبدّلت، قوة غريبة تجمع بين حدود العقل والفكر والمنطق، لتقودهما صوب الكلمة نفسها، فتخرج عابقة بهما.

جلست تتأمل السّاعة الذّهبيّة المعلقة على الحائط، إنّها الثّانية عشرة بتوقيت بيروت، لقد حطّت الطّائرة فوق أرض المطار، وما هي إلا لحظات حتّى أمسكت بهاتفها كي تطمئنّ عليه... وعندما رأت رسالته شعرت ببرودة ساعدتها على تخطّي حواجز الخوف.

ارتمت فوق مقعدها بعدما شعرت بتراخي أعصابها فقد مرّت بتشنجات غريبة بسبب سفره، وسرحت نظرها إلى الخارج حيث اللّيل الحالك الشّديد الظّلام، والقمر الغائب عن السّماء. ورحلت على متن سحابة جديدة لتستشعر به عن بُعد.

وها يدها تمتدّ من خلف الهاتف لتلامس وصوله أرض لبنان الحبيب، وعلى الرّغم من مرافقتها له كطيف يحلّ أينما حلّ، لكنّها تشعر بغيابه المكاني وبُعْدِهِ، وبَعْدَ جمل قصيرة بَشّرها فيها بوصوله بالسّلامة، استسلمت للنّوم العميق، وهي تردّد بعفوية وبساطة:

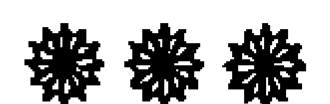
_ الحمد لله، لقد سلّمني ربّي الأمانة، وأشرق هذا الرّجل مجددًا فوق حياتي.

ومع صباح يوم خريفي منعش، أتاها صوته محمّلًا مع نسيمات

تشرين آخر دافئ كدفء الأول، صوته الّذي التحمّ بصوت الصّباح، بشروق الشّمس، بحرارة الميعاد، بالمحبّة والطّمأنينة لأنّه عاد إلى وطنه لبنان، حتّى صار هذا الصّوت ملازمًا لها، تحمله كل يوم في حقيبة عملها، وترتقبه كل دقيقة وكل وقت، وتهدهد زقزقته الّتي توقظها من مناماتها معه، لتحلّق في دنيا الهناء.

اليوم، خرج صوته من بقايا الحلم، وبقايا الزّمان، فقفزت من سريرها حافية القدمين، لتكلّمه، وليهبها دفء الرّوح، وتهبها كلماته السّاحرة التّشويق في أذنيها، ولتستيقظ من غفوة كبيرة طويلة، وتعيش معه غفوة مذهبة بإطار ناعم ورقيق.

لم تخفِ قلقها عنه، وأخذت تحدّثه وكأنها تسرق اللّحظات، وتدور في المكان نفسه وهي تمسك الهاتف بشكل مريع، كأنّه سيهرب من بين كفّيها أو سيضيع، هي الّتي ظنّت أنّها سترتبك عندما تسمع صوته، أخذت تصبّ كلمات الشّوق والحبّ على مسامعه، وهو يبادرها بكلمات الإغراء، وراحا يتبادلان الأحاديث الفعليّة بهدوء حينًا وانفعال أحيانًا، إلا أن أغلق الهاتف بعد ٤٦ دقيقة متواصلة من الكلام الّذي لن ينتهي أبدًا.



«كلماتُنا المنتهيةُ صلاحياتها فقط،
هي الكلماتُ الصّادقةُ...»

سيسرقها يومًا ما من دهرها، هكذا أخبرها في إحدى رسائله، وسيحتفظ بها لأنّها من أجمل مسروقاته، ولن يتوقف عن تناولها حتّى الهلاك، فهي نجمته الصّباحية الّتي تحتل قائمة الصّدارة في حياته، وعدد الرّسائل الّتي توجّهت إليها فاقت أحرفها الألف حرف.

إنّها ملهمته وسيّدته وحبيبته، إنّها الحياة بالنّسبة إليه، وكم يعشق تلك السّاعات الّتي يجالس فيها تلك الشّبكة العنكبوتية، ويخاطب سيّدة حياته، ويعدّ السّاعات كهنيهات لن ينساها أبدًا!!

سيتحدّى العالم، وسيتحدّى نفسه، وسيتحدى تلك القوانين والأعراف الّتي ستحول بينهما، أو تبعدهما عن بعضهما بعضًا. سيبدّل استراتيجية حياته، وحياة الآخرين، سيجعل منها عنقود حياته مهما طال الزّمان. وهو إن تحدّى ذاته واستمرّ في حبّه لها، فهو فسيمتلك القدرة على تحدّي كلّ مَنْ سيبعدها عنه. فهي ليست مجرد قطرة حبّ شرب منها، إنّها المحيط الّذي يُبحر في كيانه، ويواجه عواصفه المتكررة، واجتياحات الأمواج العاتية لقواه المنهكة أمام جبروت قلبها خلال عام كامل. ولكنّ إيمانه بأنّها ستحبّه يومًا ما... كان بمثابة أمل غير منقطع.

الجملة الّتي ما زالت تعود لتبعثر الذّاكرة لديها.... هل يعقل أنّها أحبّته؟ أي مواجهة جديدة ستتحملها، وهو السّكران بين يديّها، والمجنون عند بعادها؟ وهي السّكرانة بنبيذ حبّه المتجدّد والمشعل الدّائم لها.

لقد صارت بعضًا منه، وصار يشعر برائحتها وأنفاسها ونبض قلبها، على الرّغم من المسافات البعيدة، لقد صار يكتفي منها وبها..... قانون جديد خُلق معها، لأنّها تستحقّ كلّ كلمة يقولها، وكل حرف ينطق به، وكل جملة يصوغ منها كلام رسائله...

هي الّتي لم تدخل بابًا، إلا وخرجت منه مميّزة، أسيكون باب حبّه مفتاحًا جديدًا لنجاح آخر، وكيف سيكون ذلك مع امرأة أخرى ستكون شريكة لها؟

هي الّتي أحبّت مشاركة كل شيء مع الآخرين، لكنّها هذه المرة مشاركة من نوع آخر. إنّه الحب.

وكيف سيتمكّن من الجمع بينهما، هو الّذي يعيش أكبر خيباته مع الزّمن، وأكثر أوهامه الإنسانية مع امرأتين. الأولى يجمعه بها رباط مقدّس يخنقه في معظم الأيّام، والثّانية يجمعه بها حبّ مثل السّحر العظيم، يحتوي عليه. فأيّ حب هذا؟

لقد آمنت بفكرة الحب الكلّي، ولكن هل يكون كاملًا؟ الحبّ الكامل لا وجود له في الحياة، فلا شيء كامل سوى الله، هذا الأمر أحد معتقداتها الحقيقية في الحياة. والحب كعبير زهرة فاحت، وملأت

أرجاء حياتها، ولكنه لن يكون الزّهرة الكلية، فالزّهرة لامرأة أخرى والرّائحة لها، وهي ما بينهما ضائعة تلملم شتات قلبها الممزّق فوق سكاكين جديدة آلمتها كثيرًا هذه المرة. ولا بدّ لها من أن تكون مرتحلة إلى سمائه يومًا ما، من دون قيود، وكيف ستكون عصفورة حياته، وهو في قفصه الذّهبي وضع عصفورة أخرى؟

تركت سؤالها رهن القدر.... فهو كفيل في الإجابة عنه..



«سأعيشُ معكَ حتّى البداية،

لا النّهاية»

استيقظت صباحًا على وقع صمت المكان، وراحت تتأمل المكان بعد عودته، وشعرت أنّه أجمل مما كان، وتغلّبت على شعور الوحدة الّذي كان يرافقها دائمًا، طرحت جنونها جانبًا، وركضت صوب هاتفها لتدوّن رسالة سريعة تبلغه فيها أنها مأخوذة بسحر المكان وغموضه، لأنّه موجود فيه. تأخذها الأفكار بعيدًا، تلاحق فراشات متعددة تطير أمام أعينها، فهي تجلس على الشّرفة تصطاد بضع كلمات تتوّج بها رسالتها الجديدة الّتي وعدته بها.

لقد أغلق حاسوبه يريد أن ينهي بعض الأعمال الّتي طرأت عليه، وتركها وحيدة تصاحب أفكارها المنثورة هنا وهناك. تفكّر بكلماته الطيّبة، وبروحه الفاضلة، وتجبر نفسها على الكتابة في لحظة انتشاء مميّزة تعيشها، فمنذ زمن لم تسمع مثل تلك الكلمات، ومنذ مدّة والحزن يبعدها عن الحبّ.

سقطت الأميرة في حضن العاشق المتيّم، وخطّت أناملها ما لم تجدها قريحتها مسبقًا، فقد صار حلمًا جميلًا تريد أن تعيشه. نعم، إنّه قرارها في تغيير ذاتها، ألا يحقّ لها أن تحب؟ ألا يحقّ لها أن تكون

ملكة على عرش قلبه لتسدل السّتارة السّوداء الّتي ألمّت بحياتها؟ ألا يحقّ لها أن تكون الرّقم الأوّل في حياته؟ تريد معانقته، ومعانقة كل كلمة موجّهة إليه.

لقد أخذت القرار، ستكون فقط امرأة حبّه، وستبقى معه شاء عقلها ذلك أم أبى؟ فهي من دون الحبّ لن تكون حيّة، وستعيش الحياة بوصفها حبًّا، ولن تعيشها بوصفها حزنًا. ومنذ ذلك الوقت صارت تعيش معه تجربة الحب الأولى بصخبها وجنونها، أخذت تحتويه طوال النّهار بكلماتها كي توضّح له أنّها لم تتغير، وأنّ الخوف الّذي ساوره عندما كان مسافرًا بأنّه سيعود ليراها امرأة أخرى يجب أن يتبدّد، وأنّها ما زالت الحبيبة المجنونة به، وحين شعرت بعدم تصديقه لها قررت أن تزوره في عيادته، وتدوّن اسمها كمريضة عند سكرتيرته الكثيرة الكلام والاستفسار، والّتي صارت تريد فهم طبيعة مرضها، ومَن أخبرها باسم الطّبيب خالد؟

هي القوية، لن يدرك أحد أنها حبيبته، ستمثل دور الإنسانة العادية، ستكون قريبة منه بنظراتها، لن تتكلف عناء الكتابة، ستترك المهمة لعينيها، لن ترتاح إن لم تزره اليوم وتنظر إليه، هذا ما سيطر على كيانها، والتّفكير بقرب المسافة لم يتلاشَ قطّ منذ الصّباح، لذا قررت النّزول ومعها باقة من الحنين لتملأ المكان به.

أطلّت من الباب، واتّجهت صوبه بخطى خفيفة،بعدما سمحت لها السكرتيرة المزعجة بذلك، ودخلت كأنّها فراشة تطير إلى زهرة

قلبه، بينما أخذ يراقبها عن بعد ببسمة خافتة، تثير شوقه إليها؛ كانت عيناها تقفزان من مكانهما، بينما عيناه تلتهمان وجودها كاملًا.

أخذت تكلّمه على أعمالهما المستقبلية خوفًا من أن تسترق السّكرتيرة السّمع، وتعرف طبيعة الحكاية بينهما، وكان يشعر بذلك الامتداد العجيب الّذي جذبه صوب صوتها كمغناطيس سحريّ. وكانت أصداء الحبّ تتردّد في المكان لتعبق بقلبَيْهما الرّقيقَيْن. ربما عاشت هذه الجلسة في حياة سابقة، هكذا شعرت، لكنها حقيقة، وصار لا يخفى عليها مدى توافقهما الإيجابي.

وكان لا بدّ من اللّقاء الثّاني، وأن تقترب منه أكثر في المدة القصيرة الّتي سيقضيها في لبنان، وكان أن اتّفقا على موعد آخر. فرحت من حلول اليوم المنشود، والموعد المنتظر، واجتازت المسافة المقرّرة لتجديد اللّقاء، فتعلّقت بحبال الأمل المحبوكة بسلال من نور الشّمس، وبدأت مغامرتها الأولى معه كلصة تدرك كيف تلتقي به من دون أن تترك أثرًا لجريمتها، أو أدلة للقائهما في وضح النّهار. ارتدت ما ظنته أفضل ما لديها في الخزانة وأسرعت صوب الموعِد، لا يتبادر إلى ذهنها سوى فكرة واحدة هي: كيف سيكون اللّقاء معه.

نزلت إلى بيروت، مرّت بأماكن عديدة، راقبت البنايات العالية، والطّرقات الطّويلة، دخلت النّفق الأول والثّاني، وكم شعرت بطول الطّريق المؤدية إليه. عانقت الحاضر وأغنية جميلة سيطرت على كيانها، بهمس المطربة وملامستها خفقات قلبها، وساعدت نفسها على الهدوء

كي تلتقيه على طبيعتها. وصلت إلى المكان، ولفح وجهها نسيم عليل ناعم، حملت عطر الياسمين معها، وزنابق الحقول، والأريج العذب الّذي سيعبق به بعد لحظات.

ولما التفتت، رأت نفسها معه، لا فرق بينها وبينه، وشعرت لأوّل مرة بأن الطّبيعة جميلة، والصّباح ربيعيّ، والحدائق الغنّاء تحيط بها وتزنّرها بأزاهير الوزّال والزّيزفون. ارتفع الشّوق فجأة، وملأ صدرها، وركضت صوبه معانقة دفء عينيه، ولمسة يديه الّتي رمتها بسهام العشق الأولي.

وقف يتأملها بدقّة، وكأنّه لم يرها قبلاً؛ فهي للمرة الأولى ليست المحاضرة في المعهد، وليست الحزينة على بعده، وليست القابعة خلف شاشة الحاسوب تكتب له رسائل متعددة، وهي ليست المرأة الرّافضة له بسبب طبيعة زواجه، للمرة الأولى تكون حبيبته على الرّغم من الحزن الّذي قرأه خلف ابتسامتها المتقنعة بها. قال لها:

_ أنت قريبة منّي، وهي البعيدة منّي، كفاكِ حزنًا يا وجعي، كفاك ألمًا فقد أنبتِّ الشّوك في قلبي.

_ أنصت إليّ دائمًا، تدرك أنّنا سنبقى في مواجهة الحزن، الّذي سيسدّ مسالكنا، ويغلق ممراتنا المؤدّية نحو طريق السّعادة. أنا مؤمنة بأنّ علاقتنا تسير نحو النّهاية، وأنّك ستهجرني يومًا بسببها أو بسببي، لا أعرف.

_ خسارتك يعني انتهاء حياتي، وعودتي إلى نقطة الصّفر، لا

تكوني متشائمة، لا أريد التّفتيش عن امرأة بعدك، لا أريد لحكايتنا أن يكتب لها الفشل، فأنا الرّجل الّذي صار لا يملك بعدك شيئًا.

اقترب منها وطبع قبلة على جبينها بعد عناق طويل، أفرغا فيه شحنات الشّوق اللامعقولة واللامتناهية، كان يضمّها إليه حتّى أخالته صدر أمّها الحنون والرّحب، كان يحتضن حبّها وتشبثها به.

أيعقل، أن يكون بهذه الرّوعة والصّفاء؟ أيعقل أن يكون هو؟

نظرت إلى عينيه وقد زادها روعة انعكاس أشعة الشّمس الذّهبية على ملامحه الرّجولية، لتضيف إلى روعة اللّقاء جمالية، نظرت إلى سحر عينيْه السّوداوين، فيهما بريق لامع يحوي أسرار الحياة كلّها، فيهما جاذبية الأحلام. نظرت إلى أناقته المعتادة، إلى تصفيفة شعره المميّزة، وقالت له:

ـ أنت أنيق جدًّا، كم أعشق أناقتك!

ـ بل أنتِ الأنيقة، وكل ما ترتدينه مثيرًا وجاذبًا، كم يلفتني الأسود ويغريني الأحمر ويقرّبني منك الأزرق ويجنّنني الأصفر، الألوان كلّها تليق بك يا حبيبتي!

ـ وحده الأزرق يقرّبني منك.

وقف أمام هيمنة بهائها مستسلمًا استسلام الطّفل لحنان أمّه، معانقًا إيّاها، إذ لا يسعه أمام جبروت نظرتها، إلا أن يلقي السّلام عليها بأدب ووقار، وينسى أصوله الرّومانسية، وكتابات نزار، وعنفوان عنترة، وجنون قيس، وأغاني كاظم.... ينسى ذلك كلّه في لحظةٍ مع الزّمن،

ليترنّم بروعة حسنها، ومن دون تخطيط قامت بإشهار سلاح قوي في وجهه، وقد عرفت كيف ترديه قتيلًا، قتيل حبّها فقط.

سألها، وهو يعود إلى تأمل تفاصيل وجهها:

ـ هل أنت سعيدة معي؟

بحركة صغيرة عبّرت فيها عن رضاها وسعادتها القصوى، ثم عاودت عناقه، كأنّها لا تريد لجسدها أن يبتعد عنه، فهو نصفها الحقيقي ومن دونه جسدها ضائع.

جلسا على حافة مقعد، وراحا يتبادلان الأحاديث الهاربة من الوقت، خفّفت من حدة خوفها نظراته اللامعة ببريق الحياة، وقد أشرقت به. ثم صمت متأملًا وجهها ليهمس في أذنها:

ـ كم أنت جميلة، كم أنت رائعة يا طفلتي!

جرجرهما الوقت بسرعة، والسّاعة صارت تشبه الدّقيقة، والوحدة القوية الّتي شعرا بها سابقًا نسياها، واتّحدا ببعضهما ليجدّدا الولاء لحبّهما... كان صوته طبيعيًا خافتًا، وكلماته فيها ميزة الشّاعر.

نظرت إليه قائلة:

ـ لم أكن أعرف أنك شاعر، تجيد فكّ طلاسم كلماتي، وتكتب بإحساس عالٍ على ورق قلبي، لم أكن أعرف أنّك ستتعلّم بهذه السّرعة لغتي، وتحبّ شظاياها المترامية مع الزّمن. ولكنني كنت متيقنة من قدرتك على مجاراتي، لأنّك بكل بساطة أنا.

ـ إنني شاعر، أتعلم منك نسيان الماضي والحاضر والمستقبل،

وأدمج لحظات حياتي كلّها بك، كي أبتهج مع تفجّر مشاعري الجديدة على عتبات قلبك الرّقيق. وأعيش في ترقب لا مثيل له لقاءاتنا في شغف وشوق وحنين. لذلك أحضرت لك هدية تليق بك، هدية سأزرعها في جوانب حياتك، كي تتذكريني في كل خطوة تمرين بها.

ـ لم تجبْهُ، كانت تجهل نوع هديته، وكان صمتها سيّد الموقف، فقد استولت الدّهشة على مشاعرها، وأفكارها لامست شغاف السّحاب.

لم تكن هديته معقولة، كانت تحمل ملامح قلبه، تشبهه بتميّزها. كل قطعة قدّمها لها حملت معاني الحب والعشق، أمّا علبة الشّوكولا بلونها الوردي فمذاقها لم تستطع أن تنساه قطّ، إذ كلما تذوقت حبّة منها صارت تمتلك لذة العالم كلّها.

هوت يده اليسرى على كتفها، لتشعر بها في قلبها، وتنعشها بعشق أبدي. حتّى تلك اللّحظة، لم يكونا مقيدين بالزّمان ولا بالمكان، بل كانا يشعران بالحرية وبارتباط جديد معها.

مشاعر كثيرة أحسّا بها، ودقائق لطيفة مرّا بها، وكان الوداع.

الطّريق تتلوى أمامها، وهي سائرة. صوت المذياع عالٍ علّه يخفّف من وجع الرّحيل، راحت تتأمل كل ما يمرّ من حولها: الصّخور، البحر، مشهد الغروب الّذي لفت نظرها، والبنايات الّتي تختفي وتظهر، حتّى إذا وصلت إلى منطقتها، عاودتها مشاعر اليأس، وتملّكها القلق الّذي رصد المسافة اللازمة للوصول إلى قلبها.

لماذا تتلاشى ذرات الطّمأنينة ليحل القلق، لماذا تخاف من القدر، أيعقل أن يقدّم لها أجمل المشاعر في وقت انهماكها اللاطبيعي في عملها؟ أيعقل أن تفتح لها أبواب السّعادة؟

هي الّتي اعتادت على اتفاقيات هدنة متجددة مع الحزن كي يليق بها سويعات من السّعادة تحمل إليها بعض الرّاحة من حين إلى آخر.

جلست مساء أمام شاشتها، عبّرت بكلمات كثيرة عما انتابها من مشاعر لم تشعر بها مسبقًا، وبكبسة زرٍ قويّة انتقلت رسالتها إلى عالمه كي تكوّن معه بداية أخرى، وواقعًا جميلًا، بعد أن صار رجل حياتها.

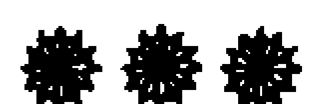
لقد كان حلمها في الماضي أن تتزوج برجل ينتشلها من وحدتها، ويعوّضها أيّام العذاب الّتي عاشتها ولاتزال، كم تمنّت لو التقته في زمانها البعيد، وأخذت معه ثقافته، وجرأة كلماته، وروعة سحره! كم أرادت أن تصنع شخصية أخرى معه! شخصية تحاكي شخصيات صديقاتها اللّواتي كوَّنَّ حياتهن المميّزة، كلّ واحدة منهن اصطادت شريك حياتها بخفة عالية، وبقدرة فائقة على الاختيار الجيّد.

الأولى تزوّجت برجل أعمال كبير، وانتقلت من منزل والدها إلى قصر شيّده لها في بلدة جنوبية جميلة، تحيط بقصرها أنواع عديدة من الأشجار الضّخمة الّتي تثير العقل والفكر معًا.

الثّانية انتقلت مع حبيبها إلى الرّياض كي تعمل هناك برفقته في شركة مناسبة لوضعهما الاجتماعي المستقر، وقد أنجبت منه فتاتيْن، سمّت الأولى ريم والثّانية نور تيمّنًا بصديقتهما الثّالثة الّتي تزوجت

مهندس بترول وانتقلت معه إلى العراق، لتعيش في منزل هادىء في قرية جيكور حيث أشجار النّخيل العالية الّتي تغنّى بها شعراء العراق، وأشادوا بجمالها.

كلّهن يعشن حياة سعيدة، ويكملن مسيرتهن برفقة أزواجهن، وبحبّ ووفاق كبيرْين. بينما هي ما زالت تعيش بشخصيتها الضّعيفة على ذكرى ميتة. كم كرهت شخصيتها واحتقرتها، وأرادت أن تتغير علّها تسير مع ركب هذه الحياة! ومع هذا الرّجل الّذي يثير فيها أمورًا عديدة، وجنونًا غريبًا ستبدأ بالظّهور العلني إلى دنيا الوفاق، والتّقدير، وتقديس كل ما يقوم به، معتمدة وسيلة نسيان الماضي كطريقة قوية لمتابعة حياتها. فقد أغراها النّسيان وغباره، وعقدت اتفاقية جديدة معه كي تتغلّب على كل ماضٍ أليم أتلف مساحة لا بأس بها من قلبها المقتول.



«أنا يا سيدي من سلالةِ الشّمسِ، أحبُّ الضّياءَ وأغمرُكَ بالنّورِ، ومعي لن ترى الظّلامَ أبدًا...»

حلّ مساء آخر، وفي هذا اللّيل الطّويل، لم تعد تشعر إلا به، اتكأت على أريكتها لتسرح بعالمها الجديد، حدّقت في صور أغنت البيت بلمساتها الفنّية. لا يمرّ على بالها أحد، فهي تدور في فلك آخر. ثمّ أخذت تنظر إلى عينيه الجميلتين، فساورها إحساس رائع أبعدها قليلًا عن الواقع، لتنسى لحظات آلمتها، وعيونًا أدمعت كثيرًا حتّى جفّ دمعها. أيكون حبّها مخالفًا للأعراف والتّقاليد؟ أتكون امرأة استثنائية يخلق منها حبيبها ملكة جديدة في القرن الواحد والعشرين؟ أيكون فصل حكايتها الأخير مفرحًا في زمن اعتدنا فيه على الفصول المبكية؟ أسئلة رهن القدر، ورهن الحبيب الجديد.

تريد رجلًا، ولا تريد حبيبًا مخادعًا، يمثّل عليها شريطًا جديدًا من الأحداث، لأنّ مهنة تمثيل الحبّ قد سيطرت على الأمكنة كلّها، والأدوار أُتقن تمثيلها برشاقة بحيث لا يمكن معرفة الصّادق من الكاذب. لكنّها تريد رجلًا، هكذا قررت على الرّغم من خوفها من هذا الاختيار المفاجئ الّذي استجدّ في حياتها معه، خصوصًا بعد اعترافه

لها أنّ زوجته هي المرأة الّتي قيّدته كثيرًا، وأنّها عائدة قريبًا، وربما سيؤثر ذلك في موضوع مقابلتها دائمًا.

لقد حمّلت قلبها الكثير من الوجع، والقليل من الأمل. وأرادت أن تكون امرأة اجتماعية، تتوارى خلف خيباتها المتكررة، لقد شاءت أن تعيش لتعيش فقط، وأن لا تشقّ طريق حياتها بغباوة الفتيات اللّواتي يقعْن فريسة حب المراهقة، ويتزوجن بسرعة البرق، وكأنّ الحياة انتهت. فيتركن دراستهن، ويرفضن العمل والعلم معًا. ويلغين حقيقة وجودهن، فقد أصبحن نساء متزوجات.

بئس هذا التّفكير التّافه، وبئس هذه الحياة إن كانت ستمرّ بلا شيء، بلا بصمة وجود، بلا تفكير، بلا كيان.

هي مختلفة عنهن، إنّها تعشق عملها، ورغبتها في التّخصص بعلم الميثولوجيا لا تنفكّ تثير تفكيرها، وتودّ لو تتفنّن في طرائق البحث إلى جانب الفلسفة الّتي لا غنى عنها في الحياة، كي تكوّن معرفة هائلة بالموضوعيْن، وتصير باحثة ميثولوجية معروفة في العالم.

إنّ ذلك سيشعرها بسعادة لا مثيل لها. إنّها سعادة البحث والغوص في ممالك العالم، لفهم أساطيرها المتنوعة، فتُبحر في سفن العلم، بين الميثولوجيا الشّرقية والإغريقية، لتفتح كهوفًا مظلمة، وتعرف أنّ آلهة الحبّ والجمال هيلينا ستناديها يومًا، لتدخلها عالمها السّحري مع هذا الرّجل الّذي يحبّ الحياة، ويبرع في قتل لحظات حزنها، لذا هي تحتاج إليه. فكيف تأسره بطريقتها الخاصة لتسجنه إلى جانبها؟ كيف ستجعله

يتخلّص ممن تقيّده، وممن ستعود خلال أيّام كي تمارس سحر سلطتها عليه، وتفعل ما تقدر عليه لتبعده عمّن أحبّها قلبه.

لقد وصل حبّها إلى درجة أبكت القمر من أجلها وصارت قطراته تخشى الهطل، حتّى لا تهطل مشاعرها بعنفوان. لم تعد ترى النّور إلا من فضائه، ولم تعد تشعر بغير عطره.

إنّها تعاني الضّياع بعد تلك المشاعر، وتشعر بحاجتها الشّديدة إليه، وتعدّ اللّجوء إلى تلك المساحة الصّغيرة المفتوحة بينهما رحيلًا طوعيًا عن العالم الخارجي للتّقوقع داخل عالم داخلي، وكأنّ هروبها من خيباتها ومن الأحداث الّتي لم تكن على مستوى توقّعاتها، هو ما تريده في تلك الجلسات معه؛ فالمسافات صارت واسعة، والشّاشة أقرب، وهروبها من ذاتها صوب ذاته قد خلق معادلة صعبة وهي الهروب إلى الأمام.. لن تبالغ في خوفها لأنّها تؤمن بالقضاء والقدر، ولكنّها تشعر بشيء تجاهه... تشعر بانقبضات قلبها المتكررة حين يتركها وحيدة. تُرى أتعترف له بأنّ حبها وصل إلى درجات الجنون القصوى؟ أم أنه ما زال يختمر في كينونته الوجودية؟

لقد عاشت حياتها بأعجوبة، وكانت لا تخذل نفسها، بينما الجميع خذلها، ومضت قدمًا صوب تحقيق جزء من أحلامها، وها هي اليوم تقف على عتبة انتقال قويّ. الانتقال من حالات الرّفض المستمرة إلى حالة القبول كما لو أنّ شيئًا بدّل أفكارها، وأقنعها أنّ لروحها حقًّا عليها في الحبّ والهيام. لقد ناضلت كثيرًا في سبيل عدم الوقوع في

شباكَ الحبّ مجددًا، وأن تؤمن بنفسها كامرأة كاملة. ولكن القدر قام بدوره المعتاد، وأخذ المبادرة عنها كي يوقعها في تلك اللّيلة القمرية في اعتراف مهمّ إذ انبعثت من شفتيْها كلمة تاهت في الفضاء الواسع، بينما كانت تفكّر بينها وبين نفسها به:

_ أحبّكَ....

نعم، أحبّكَ....

وسأبقى أحبّكَ....

وتلك المرأة، لن تبعدَكَ عنّي أبدًا...

أحبّكَ....

لأنّك رجل قلب موازين تفكيري، وعبث بأفكاري ومشاعري، وأقنعني أنّني امرأة يمكنني أن أحبّ وأشتاق وأعيش لأجل رجلٍ يستحق كل كلمة أقولها، وكلّ بسمة تسقى من شفاهها.

لقد غيّرت حياتي، ودفعتني إلى التّحليق كطير السّنونو فوق سماء بيروت حيث تقطن فوق منطقة يفوح منها عبير الياسمين الأشم، وجعلتني متعطّشة لقطرات المطر المنسابة فوق مكان سكنك. لقد اشتقت إلى أوراق زهور الأشجار المنبعثة من خلف سَنَاء أشعة شمس بيروت المباركة الّتي تحويك وتهيم كبراعم أزهار الزّنبق الّتي تتنشّقها مع نسائم الصّباح الرّبيعية، وصرت تواقة لرسم ملامح وجهك بيدي لأشعر بتجليك أمامي، فأغيب عن العالم الواقعي لأنظر إلى عينَيْك، وأنتشي بشم عبقه الزّكي الملائكي.

كم تتمنى لو تشاركه أحد صباحاته المفعمة بالزّهور والورود والنّسيم وتغاريد العصافير! أمّا صباحه فسيكون مغايرًا لأنّ فيه شيئًا منها. وستلهمه بسحرها وجمالها، وتدفعه إلى أن يكتب على الرّغم من جهله أساليب البلاغة الّتي تتقنها على حدّ قوله، ولكن أنامله كانت تخطّ بلاغة التّعبير، وكأنّه اعتاد الكتابة منذ زمن. تلك الكتابة الّتي شكّلت أحد مداخل القلب إليها، ولم تبقَ رهن الهواء والصّدى، أو ضاعت هباء، ولم تكن صرخاته المتكررة في الحياة كرماد زائل يبلله الشّتاء في ليل شتوي ويبعثره في أنحاء الكون، بل وجد صداه في قلبها.

كانت وحدها فتاة أحلامه، هي الّتي قطعت أوتار ألمه، فلم يعد يسمع غير شجون صوتها، ونسي نحيب مركبه المشرّد فوق شطآن البحر الأبيض المتوسط، وبوصلته وجّهت مركبه صوب قلبها، وأمواجها تتلاطم به ربما يكون له الشّرف في أن يتوقف أمام ميناء قلبها دائمًا وأبدًا حين يشاء القدر، ومثل الطّفل الخائف يهرع إلى ذراعيها، ليستظلّ برمش عينيها، ويطلب من قلبها حق اللّجوء الفعلي، كي يخفف من الهستيريا الّتي أصيب بها خلال فترة تعارفهما غير العادية حين كان يخترع سببًا للقاءاتهما، وهي لا تعي السّبب الحقيقي، وحين كان يجلس تلميذًا يثير الأسئلة كي يلفت نظرها إليه، وحين كان يزور المكتبة العامة فقط ليراها، وحين اتّفق مع أمينة المكتبة كي تقوم بتلك الحركة اللّطيفة وتبدّل الكتب بينهما، علّها تنتبه إليه.

تجدّد اشتراكها الشّهري لكي لا ينقطع التّواصل الوحيد بينهما،

وتفتح جهازها بسحر أناملها، وبطقطقات سريعة تصل إلى صفحتها المعتادة.

إنّه متّصل... إنّه متصل.... تصرخ سعيدة وكأنّها حقّقت إنجازًا معيّنًا مع الأنا، تلك الأنا المتمسكة به، ومرتبطة به، وهي الّتي تريد السّيطرة الكاملة بعدما أعلنت بينها وبين نفسها أنّه رئيس حياتها، وسيّد عرشها، وما معرفتها بجرائم الحب التي تعرّض لها وأعلنت بحقّه، سوى نقطة قوة كي تعرف كيف تتعامل معه، علّه ينسى أشكال التّعب والمعاناة، فتبعده تدريجًا عن امرأته الأولى لأنّه طفل ناضج بين أحضانها، يعرف كيف يبثّ شكواه، ويدرك مواطن الضّعف الكامنة في قلبها. وهي متيقنة من أهمية دخولها إلى واحته، فهي عصفورة طائشة تطير بلا خريطة وتحتاج إلى من يدلّها إلى الطّريق المناسب لتطلق غناءها الوضّاح، وأحلامها الواسعة.

في تلك اللّيلة لم تتركه للحظة، بل سهرت معه تناقشه حينًا وتعانده أحيانًا، وهي تضحك ضحكاتها الطّفولية المعتادة، وتقيم حوارًا طويلًا من دون أن تخشى شيئًا. وقد بدت متعاونة ومتعاطفة جدًّا، ومستعدة لأن تبادله أصناف الحبّ والغزل، فهي في محراب رجل ثوري، جعلته طفولته يتحدّى ذاته، ولكنّه لم يقدر على تحدّي حبّها.

أمّا في صباحها، فقد صار هاجسها الوحيد «هو»، يشاطرها صباحه الغريب مع رائحة القهوة وغبار الياسمين المتروك على شرفته الصّغيرة، ليكمل معها صباحات النّسكافيه الخاصة بها، وهي صارت

ترفض أن تقضي عمرها في البكاء والحزن، فقد نزف العمر وجعًا، حتّى لم يعد بمقدورها أن تخاف أي شيء.

ـ لذا قالت له: «اجعل الفرح ينتصر يومًا على بقايا شتات امرأة، وكن رجلي الأول بلا كلفة أو تردّد، وقفْ إلى جانبي، لأكوّن أولى لحظات الحبّ الحقيقية معك. فقد كنت قبل أن تدخل حياتي وحيدة كشجرة مهجورة، لا أمتلك سوى دمعة أمّي الّتي رحلت باكرًا عن الحياة، ورعشة الخوف الّتي ساورتني حين صرت امرأة من دون كيان، وحين شعرت بموت حلمي. صرتُ بلا ماضٍ ولا حاضر، أمّا المستقبل فمجهول ومخيف بالنّسبة إليّ.

ـ نيروز، لا تقولي إنّ المستقبل مجهول. أنا المستقبل، ومعي ستعيشين أجمل مستقبل، وتكبرين كلّ يوم في حضن حياتي، ولن تموتي قبلي أبدًا. ولن آخذ شيئًا من تلك الحياة سوى هذا الحبّ الكبير.

ـ خالد، إنّ قلبي لا يصدّق ما يسمعه، إنّني أعيش في حلم، وكأنني أشعر بك على الرّغم من تلك الشّاشة الفاصلة لحبّنا. فدلّني على طريق أصل به إليك، وأرشدني إلى كيفية التّواصل الممكن معك، كي أنتحر بجنون أمام عينيْك. لقد أشعلت نيران قلبي، وجعلتني أقترب منك ببراءة الطّفولة المسكوبة من روحك، فلا تخرج من هنا، لقد صار المكان جزءًا منّي، والأريكة تنشدني كل يوم صباحًا ومساءً، وعلى مرأى البعاد وأضواء الحياة الواقفة غصبًا عن الزّمن، وصلت إليك.... فكُنْ لي، أرجوك، كُنْ لي.

ـ نيروز، حبيبتي، صدّقيني لا أريد أن أرحل عن هذه الحياة من دون نبض، لا أريد أن أكون في هذه الحياة مجرد صدفة، فلنأخذ معنا آثار النّدى المتجعّد فوق أكفّ الزّهر، ولنطلق العنان لأقلامنا كي تكتب بحبرها فوق دفاتر التّاريخ أجمل القصص العشقية الجديدة، وأن تترك جرائد الأمس واليوم ولنَضِعْ بقصة نعتدي بها على الحياة التّقليدية.

انتهى كلامها في تلك اللّيلة، وغفت على حضن اللّيل، مستسلمة لحلمٍ ممتعٍ أعطاها وجودًا مستقلًا. وظنّت حين استيقظت أنّها رؤية، فقد حلمت أنّها فازت به، والحياة غدت معهما في احتفال سرمدي، وطقوس حبّهما مارساها علنًا، وأنّه تحدّى الكون بعد أن بقي الزّواج لسنوات عديدة قاتلًا له، وقد صار الحبّ هو القائد الوحيد له في معركته الجديدة الّتي انتصر فيها.

ومع انبلاج شمس الصّباح، وتغريدات الطّيور اللّطيفة الّتي لامست فنجان النّيسكافيه الخاص بها، قامت من سريرها بهدوء، وهي ما زالت تشعر بسكرة الحلم الجميل، وجلست على أريكتها الكبيرة. لقد ضاعت حكايات العشق كلّها، وبقيت حكاية وحيدة، حكاية جنونهما. وصار الحبّ عربون وفاء، وفاحت من كلماتهما أجمل الأغاني المنشودة على وقع قيثارات المكان والزّمان. هما لم يعودا ليعيشا في وطنهما بوعي، لقد صار وطنهما أريكة تجمعهما خلف قضبان مضيئة لشاشة ألكترونية، تبثّ عبر أنوارها شهقات الحبّ، وعبير الهيام، ووجع الشّوق المتدلى من صور تجسّد أقسى

أنواع العذاب. هما صارا نبضًا واحدًا، وقلبًا واحدًا، وليت الجسد يتّحد بميلاد جديد أيضًا.

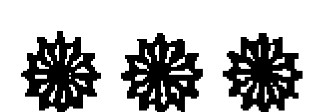
الحبّ لا يمكن السّيطرة عليه من قبل الإنسان، قانون طبيعي متعارف به، لأنّ مشاعر الإنسان أقوى من عقله في مواقع كثيرة. لذا، سيطر عليهما الحبّ وقَوِيَ بشكل سريع، وصار حبّهما مغايرًا للواقع كممارسة وسلوك، إنّه ليس حبّ السّلوك القائم على قبلة ولمسة وعناق أو ممارسة، بل حبّهما حبّ الرّوح للرّوح، إنّه الحبّ الّذي سيتكلم عليه التّاريخ كأقوى قصة حبّ خلّدها متحابّان. هو الحبّ الّذي سيغيّر القلوب والنّفوس معًا.

أصبحت تستهويها طريقة حبّه لها مع بداية تكوّن فكري وروحي جديديْن، فقد اتّفقت معه على الانتظار ريثما تهدأ الأوضاع المحيطة بهما، علّهما يلتقيان أو يقرران كيف سيستمران؟

وجدت فيه كل ما كانت تبحث عنه، فهي تتعامل مع رجل يعرف كيف يستغل الفرص. كان لديه العديد من الصّديقات والحبيبات لأنّه يجمع جمال الجسم والفكر معًا إلى جانب رصانة العقل ولطافة اللّسان. وكلّهن أمام جمالها لا شيء. هي الّتي خاطبت روحه، وواجهته بقوة سلوكها وفكرها حتّى سيطرت على قلبه بتدرّجٍ غير معهود. هي الّتي برعت في حياتها العملية، كانت تخالف غيرها من الفتيات ممن يتمسكْن بأيّ رجل جميل ويحاولن استحضاره بطرقِهن الغريبة، علّهن ينلْن من قلبه، ويوقعْن به في شباك غريزتهن الأنثوية.

هي لم تكن كذلك، كانت المرأة القوية والمتحضّرة، تعرف متى تتكلم؟ وبمَ تتكلم؟ وتخاطبه بشكل عادي، حتّى استهوته تلك الطّريقة، وصار عنده نوع من التّحدي، لأنّها لم تكن مثلهن قطّ. وصار يحتقر كل امرأة لا تستخدم تلك الوسائل القوية، بل صار يعدّها من أهم الوسائل النّاجحة في أيّ علاقة حبّ مستمرة، وأكبر دليل أنّه لم يعترف لها بحبّه إلا بعد مرور ستة أشهر، وهو يحاول اصطياد كلمة حب واحدة، ولم يكن الأمر سهلًا، لكن محاولاته في الختام نجحت، واستقرّت الكلمة الّتي انتظرها، والّتي هللت لها الأذن، ولم تعد تسمع غيرها، حين قالت له: «لقد انتظرتكَ مدّة من الزّمن، لقد أحببتك».

لايزال وقعها حتّى الآن يذوب في أذنَيْه، ويذوّبه كقطعة جليد تحت أشعة الشّمس، فتحوّله إلى متعبّد لها، لا يرى أمامه سوى نظرة عينيْها، وابتسامة شفتيْها، ورنّة ضحكتها.



«نسيتُ معكَ لغتي، واتّكأتُ على كتفَيْكَ لأصادرَ كلامًا مشتعلًا، فناولتني حزمةً من الحبّ، تجلّتْ أصداؤها فوقَ تغريداتي...»

ذهبت إلى عملها، مخفية همسات رقيقة تحت هدوئها اللامعتاد، وقد كانت خلّاقة في طرح سؤال جديد:

«من يحبّ الوجود بعمقٍ، يكن خلّاقًا؟».

سؤال أثار طلابها، ودفعهم إلى الرّفض انطلاقًا من فكرة أنّ الوجود ليس دائمًا جميلًا.

فلم يكن منها إلا أن أجابت بقولها:

ـ ما لم تحب الوجود ستكون عاجزًا عن الخلق الجديد، والإبداع المنشود، لأنّ الحبّ أعلى درجات التّغيير، والمحبّون في العالم قليلون جدًّا، لذا يبرز الشّقاء، فعلينا أن نتعلّم فن الحبّ، لنتحوّل إلى وجود حقيقي فاعلٍ وله مكانته. وأن لا يكون الحبّ في حالة اللاوعي فقط، بل يجب أن يكون في الوعي أيضًا، والمطلب الأساسي يكمن فيك فقط. فلا تلمِ الدّهر على الدّوام، فرغباتك وأفعالك، ثنائيان ضدّان، يخالفان بعضهما بعضًا، وهنا تكمن المشكلة.

وهنا طرحت عليهم المزيد من الأسئلة كي توصلهم إلى حقيقة فكرتها:

«ما لم تحبّوا الفلسفة، لن تدرّسوها بطريقة جيّدة، وما لم تعجبكم الحياة لن تشعروا بالرّاحة، وما لم تدركوا جمالية الموسيقى المحيطة بنا فلماذا ستعزفون؟ ستكونون ما تريدون حين تحبّون الوجود، عندها يحبّكم الوجود ويغدق عليكم من جواهره ولآلئه».

وصلت إلى منزلها، وبسرعة البرق فتحت جهازها لتكتشف انقطاع النّت عن البيت، أقلقها الموضوع فكيف ستقضي وقتها من دونه. اتصلت بصاحب الشّركة ليقول لها إنّ هناك عطلًا طارئًا في الكابل الأساسي، وسيؤدّي ذلك إلى انقطاع النت عن المنطقة مدّة ساعتين.

أخذت تمشي في منزلها وهي تفكّر بهذا الموضوع. هل يظنّ أن النّت منقطع أم أنّه سيتضايق بسبب غيابها الفجائي، وعدم اهتمامها بمشاعره، وتركه ينتظرها لوقت طويل، أم تتصل به وتخبره بما جرى؟

ستنتظر قليلًا، جرّبت أن تلهي نفسها بقراءة كتاب عن السّعادة، وكيفية الوصول إليها، ولفت نظرها الفقرة التّالية لأهميتها.

«إننا ينبغي أن نحث كلّ فرد قادر على أن يعيش وفقًا لاختياره الخاص على أن يتّخذ لنفسه موضوعًا للحياة النّبيلة الّتي يهدف إليها _ من قبيل الشّرف والسّمعة والثّروة أو الثّقافة _ وبناء عليه يؤدّي جميع أنشطته. ذلك أنّه من الحماقة ألا تنتظم حياة المرء وفقًا لهدف ما».

بالفعل إن المرء الّذي يرسم هدفًا لحياته سيعيش بسعادة لأنّه سيحاول تحقيقه بكل ما يمتلكه من قوة وإرادة. وأهدافها في الحياة

متنوعة ومتعددة، والهدف الأسمى الّذي تسعى إلى تحقيقه هو التّواجد مع حبيبها دائمًا. وأن تستمر معه إلى الأبد بعلاقة روحية لا تفصلهما المسافات ولا الظّروف.

قضت أكثر من ساعتين وهي تقرأ، ونسيت نفسها بين صفحات ذلك الكتاب، إلى أن انتبهت إلى الوقت، ركضت إلى جهازها لتكتشف أن الأنترنت ما زال مقطوعًا.

جنّ جنونها، واتصلت بصاحب الشّركة ليخبرها كالعادة نصف ساعة بعد وتنتهي المشكلة. ولكن المشكلة لم تنتهِ بعد نصف ساعة ولا بعد ساعتين. قضت يومها بالكامل وهي تكتشف جهازها كلما تذكّرته أو شعرت بهمساته تداعب أذنيها، وكانت كل محاولة تبوء بالفشل.

شعرت بالانزعاج الشّديد لمرور يومها من دون مراسلته، واتصاله المتكرر بها لم يعد يكفيها، فهي تشبه العطشانة لنهر الماء لا إلى قطرة منه. لذا، لم تترك شيئًا إلا وقامت به حتّى تتغلب على الوقت، وحتّى لا يتغلب عليها بالألم والحزن.

أغمضت عينيها قليلًا، واستسلمت للنّوم وحلمت بأنّها التقت به في أحد القطارات، وكلّمته على شوقها إليه وسعادتها بلقائه بها على الرّغم من غرابة المكان.

في القطار كان اللّقاء الأوّل، أليس غريبًا أن يكون هناك؟

طرحت هذا السّؤال عليه، وكانت الإجابة من قبله:

«لو كنت أمتلك مدن العالم لقررت أن يكون لقاؤنا في هذا

القطار، فهو جمعنا تحت سقفه، وسمّرنا بمكان قريب من النّافذة، وفيه راقبنا غروب الشّمس وشروقها، وانتقلنا من مكان إلى آخر. وفيه عرفنا معنى الحب الحقيقي، والتقت الرّوح والعين. وكنت في أبهى حلة وأروع لباس ورديّ زاهٍ».

صوت زقزقة العصافير في الخارج يدفعها إلى الاستيقاظ متكاسلة، ترنو إلى النّافذة وتنظر إلى الخارج نظرة استياء لأنّها استيقظت من حلم قد جمعها بحبيبها، وجعلها تكلّمه وجهًا لوجه، وتراقب نظرات عينيه، وتستمع إلى أنغام صوته حين يلفظ اسمها. فجأة، تذكّرت أنّ يومها قد مرّ من دون أي رسالة عشقية معتادة، ففتحت جهازها بسرعة، كأنّها تعوّدت على ذلك التّصرف خصوصًا في ذلك اليوم المزعج.

وكانت المفاجأة الجميلة، لقد عادت شبكة الأنترنت إلى بثّها المعتاد، فتحت بسرعة صفحة الفايس بوك الخاصة بها، وبطرطقة سريعة بأناملها فوق الكيبورد وضعت الأرقام السّرية الّتي حوت يوم تعارفها به، لتغيب معه بوجبة رسائل شهية يتبادلانها.

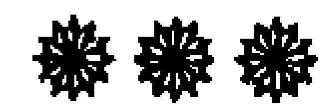
انقضى الأسبوع، وكان أن عادت زوجته من السّفر، خابرها بسرعة ليخبرها بموعد قدومها، والمطلب الأول منها أن تكون منتبهة حتّى لا تشك بالأمر.

أقلقها الأمر كثيرًا، وأدركت أنّ لقاءاتهما الحميمية ستخفّ تدريجًا، وأنّ عليها الاعتياد على فكرة بعاده، هو الّذي جعلها تحبّ الشّمس، القمر، الجبال، الحيوانات، النّجوم، وكل شيء، هو الآن

سيجعلها تحبّ الحزن وتعقد معه هدنة كي يكون خفيف الظّل عليها. فهي لن تقوى على تجدّد الصّراعات الحياتية.

اتصل بها ليلًا، أخبرها أنّه مشتاق إليها، وقال لها: لا وجود للخوف، ولا وجود للقلق بيننا.

إنّها تثق به ثقة عمياء، ولكنّها تخاف عليه كثيرًا، وتخاف من خسارته أكثر. وهي لا تريد أن تكون معه كلصّة تقوم بسرقته أو بسرقة اتصال منه. أزعجها هذا الكلام، فأن تفقد مكانتك المعتادة عند شخصٍ كمن يفقد قدّيسًا كبيرًا فتصبح ميتًا أكثر وأكثر.



«واحتارت الشّمسُ كيفَ تشرقُ
على جبينِكَ الأصيلِ»

حان وقت رحلته العملية الثّانية، فرحل وفي أعماقه نبضة حزن غريبة، كأنّها تنهيدة الهزيمة في هذا الزّمن. وترك لها رسالة يقول فيها:

«لوعة المكان تداهمني، والذّكريات ترافقني، وأنتِ من دون شك، فتاتي، ولكن اعذريني وافهميني، ولاحقًا أخبرك بوضعي».

كلمة «فتاتي» أشعلت في داخلها مشاعر قيّمة، والهدية الّتي تركها لها كانت مفاجأة جديدة من مفاجآت حكايتهما معًا. لقد ترك لها فستانًا مميّزًا بنفحات النّمر، وشياكة لا سبيل لها، وأناقة فريدة، لترتديه في إحدى الحفلات الّتي ستجمعهما؛ إنّه الفستان الأنيق الّذي سيدخلها إليه كسندريلا زمانها، وقد أراد أن يحتلّ أنحاء جسدها، علّه يحتل جزءًا من المكان، ويكون برفقتها بشكلٍ ما، كما ترك لها عطرًا هادئًا يساعدها على إثبات أنوثتها أكثر. ليضيع حينذاك ما بين جمال جسدها واحتكار العطر له.

الفستان والرّسالة وكلماته شكّلت نكهة خاصة في ليلها، إذ عانقت فيه نظراته المتكررة لها قبل سفره، والفرحة الّتي انقلبت حزنًا، والسّعادة الّتي انقضت بسرعة. وساءلت نفسها: «كيف ستكون حكايتها

معه بعد الآن، وبعد ما مرّت به من عذاب الضّمير خلال الأسبوع الأوّل لعودة زوجته من السّفر، ومشاركتها التّامّة له؟».

أغمضت عينيْها والبسمة تعلو شفتيْها، وتخيّلت نفسها تدخل الحفلة بفستانها الجديد، وتمنّت لو يمسك بيديها أمام النّاس معلنًا أن هذه الفتاة هي حبيبتي، ويبادر حينذاك إلى أن يقدّم لها باقة الورود على وقع رقصة التّانغو.

لم تستطع النوم قبل ليلة، ولم تستطع النّوم في هذه اللّيلة نفسها، هذا كلّه بسبب سفره.. لم تزرها متعة الأحلام، وصار خيالها يرسم رجلًا حاملًا شنطة السّفر، وراحلًا إلى بلد آخر. الحالة صعبة والأصعب فكرة أن نعيش بعيدين ممن نحبّ.

أخذت ترصد يوميًا تقلب حالتها وفقًا لما يجري معه. كان غريبًا التّوافق بينهما حتّى في تقلّب الحالات وتغيّر المزاج واقتران لحظات الفرح بعضها ببعض. وها هي الآن تشعر بتقلّب فكري غريب يمنعها من النّوم. ومع أصوات الفجر الأولى تمكنت من الاستسلام الحقيقي لأحلامها.

استيقظت صبيحة سفره، عانقت غيابه وشمّت رائحة رحيله، وارتمت فوق غياهب الألم، ولكن في سفره مفاجأة جديدة لها، فما هي تلك المفاجأة؟ وماذا سيحضر لها بعد عودته؟ وكيف سيكون تواصلهما، أستكون كرسائل عابرة تحبس في إطارها مشاعر شوق لن تموت، أم ستكون مشاعر من عهود الصّبا لن تموت؟

ستنتظره كما انتظرته سابقًا، وستعيش اللّحظات الجديدة مع الصّبر، لقد سلبها القدر الكثير والكثير، ولكن رجلها علّمها أنّ الصبر مفتاح الفرج، وهي تعرف أن ذلك لقريب.

سرت البرودة في قلبها، وشعرت بالرّاحة قليلًا عندما عادت إلى كتاباته القديمة لها، واستجابت إلى تلك الدّعوة من الزّمان بالعودة إلى ذكرياتها معه، ورفعت وجهها صوب السّماء الصّافية الزّرقاء الّتي تشبه يومًا ربيعيًا أكثر من كونه خريفيًّا. أغمضت عينيْها، وسرحت في حلم شارد، فبدا لعينيها ثبات أركان هذا الحب، فما إن يغيب لحظات حتّى يتصل بها، وما إن تبتعد قليلًا حتّى يبادرها برسالة سريعة للاستفسار عن أحوالها. ولا يتجاهل أي كلمة توجّه منها، ويسجّل في الذّاكرة إشارات الزّمن كلّها الّتي يضعها في طريقها وطريقه، وهو يشدّد دائمًا على سعادته في تحقق تلك الإشارات بينهما.

لقد خفّف الحلم من وطأة الضّجر بسبب انتظارها هبوط طائرته أرض الكويت، وبدأ يتسلل إلى نفسها شعور بثقل البعد؛ كان عليها أن تتصارع مع نفسها مجدّدًا كي تتغلب على تلك المشاعر المتجدّدة كل حين، مشاعر الوحدة لتتنشط ولا تبقى تحت هذا الثّقل الكبير.

بدأت اللّهفة تستجدّ على مسافة ساعات، وكانت السّقطة الأولى لها في براثن كره الأماكن والأزمنة، نبّهتها تلك الحالة إلى درجة الحب الّتي تصل إليها، وعرفت أن الضّعف وجد طريقه إليها. لا بأس من ضعف بسيط في الحب، فهذا سيقوي لاحقًا سعادة اللّقاء.

جلست على شرفتها، بدت لها الأشجار عارية، والتّلال وحيدة، ورأت ظلًّا يلوح في الأفق شبيهًا بظلّه. وشعرت أنّها نجمة انعزلت عن عالمها، وابتعدت من سمائها بعد رحيله، ولاحظت أن غروب الشّمس شاحب، وظَلَّ الحزن يلامسها، والطّرقات خلت من كل شيء.

ارتعش قلبها من الوحدة، مَنْ تكون هي مِن دونه؟ لماذا لا ترحل معه؟

كانت الفترة الّتي قضتها معه، فترة جميلة فيها لحظات قطفا فيها أجمل الأوقات من أوقاتهما المنهكة بساعات العمل، فيها من الكلمات الحنون ما جعلها تمتطي جواد الأمل وترحل بعيدًا من الواقع. كانت نظراته الدّائمة تحفّزها لتجاوز الوهن كي تخلق دافعًا جديدًا لمتابعة مسيرة حياتها.

كانت معه كأنّها تدوس كوكبًا جديدًا، فيه حبّ المغامرة لكلّ ما هو جديد في علاقتهما. كل ما قامت به كان حلمًا مستحيل التّحقيق، وصار حقيقة يُمارس على أرض الواقع. وأجمل ما بينهما أنّهما يرافقان بعضهما بعضًا في اليقظة وفي الخيال، فلا يضيّعان فرصة اللّقاء أبدًا، لكن الزّمن يضيّع واقع اجتماعهما.

هكذا هي الحياة، فيها لحظات هابطة ولحظات صاعدة، ونحن نهبط معها أحيانًا ونصعد أحيانًا أخرى، فهل سنبقى راحلين مع الأحلام؟ أم تحقق لنا الحياة نقلة نوعية لنترك ذلك الفراغ المنفتح في حياتنا مع الآخرين؟ ونكوّن أنفسنا فنزحف صوب جحافل النّجاحات؟

لقد عوّدتها الحياة على أن تتأمل ما تقوم به، وأن تتهادى مطمئنة على دربها، لكنّها لم تعد تقوى على الهدوء والتّأمل، لقد صار عنوانها الجديد، خلق حالات التّواجد معه، لا التّأمل من دونه، لأنّه صار يشاركها كل شيء، لحظات صمتها وصخبها، أوقات جنونها وهدوئها، ساعات تفكيرها ولا تفكيرها، أمّا هي فلم تتركه لحظة، حتّى عندما كانت تخلد إلى النّوم، ترتديه في مناماتها المتجلية في اليقظة.

طرحت سؤالها، وهي تتأمل المغيب، وترى غيومًا عابرة سماء المكان، ومع كلّ عبور لسحابة خفيفة تتذكّر أن حبيبها معلّق بين السّماء والأرض، ولم يبقَ سوى طيفه يحيط بها. أنهكها التّفكير به، وحاولت أن تلهي نفسها بأداء واجباتها المنزلية، ولكنّها لا تكترث اليوم بنظافة المكان، ولا روعة الأحلام، ولا تفاصيل يومية روتينية اعتادت عليها. وتذكّرت كلماتها قبل وداعه، كأنّها كانت تسابق الزّمان بإرسال كلمات الحبّ والوجد، كي تشعر به ويشعر بها...

لحظات قبيل إقلاع الطّائرة، ولم يبعدا الهاتف من أناملهما ليزرعا بضعة حروف تكون بمثابة زاده في هذا السّفر الغريب، يخبرها بأنه منزعج من رحلته لأنّه سيتركها وحيدة في غابة الحياة، لينهش الحزن قلبها، ويَعِدُها بأنّه سيكون معها وحولها حتّى ترتاح.

انقطع الاتصال، فبكت، وانهمرت دموعها، وفقدت قدرتها على الحراك. لم تخبره أن السّفر يخيفها كثيرًا، وأنها منذ الصّغر تكره الفكرة. هي تدرك أنّه سيعود، وسعيدة لأنّ تواصلهما اللّغوي سيقوى

مجددًا، ولكنّها لم تتحمل. في سفره الأوّل لم تعش معه رعب السّفر، بل عاشت فرحة اللّقاء. لم تعد تذكر شيئًا سوى أمسيات سمرهما، وخاتمة كل ليلة تكون بأمانيهما بأن يحلّ الصّباح عليهما.

كم تفرّغت في الآونة الأخيرة له، وشعرت بولادتها الجديدة في أحضان هذا الحبّ الهادئ! ومن قلب المغامرة الّتي سدّت عليها منافذ الفراغ كاملًا، وبلمسة سحرية تنفّست الصّعداء حين تذكّرت كلمته الأخيرة بأن تكون قوية، وبأن تفرح بقدر ما تستطيع، وتكون نابضة بالحياة أكثر فأكثر كي تفيض بالحيوية ولا تشعر بفقدان شيء.

كم تحلم أن تتفلّت من العاصفة المقيمة فيها، ومن الوحشة الّتي تلفّها، وأن تجتاز الطّرق كي تصل إليه قاطعة حبال اليأس، لترمي الدّنيا بصفعة قوية، عندما تكون له. ولكن متى؟

السّؤال نفسه الّذي طرحه في إحدى رسائله لها، ولكنّها مؤمنة أنّها ستعثر على طريقة من دون أن توجع أحدًا، ستغنّي يومًا ما لشقائق النّعمان وتعود محمّلة ببخور حبّهما حاملة وردته البيضاء لتهتفّ من أعماق قلبها:

«هنيئًا لنا، أنا لك».

ومن تشابك الأسئلة تشدّ العزم لتكتب له، وتعود إلى ممارسة عادتها معه، لتشعر به يلتفّ من حولها على الرّغم من سفره، لترتاح وتغفو وهي تردّد حكايات العشق وحكاية «الشّاطر حسن» ورحلاته الموفّقة، علّها تكوّن رحلة جديدة في هذه الحياة يكتب لها الوجود،

رحلة لم تعتد عليها في الرّوايات كلّها الّتي قرأتها، فالنّهايات دائمًا تعيسة، والأحلام مقتولة، والسّواد يغلّف الصّفحات، لكن معه هو الرّجل الّذي رفعها إلى البرج العاجي، ستكون النّهاية مغايرة.

وقت جلوسها لمكاتبته صار من أحبّ الهوايات عندها، وأجمل الأوقات الّتي تمرّ بها، وصار اصطياد شبح وجوده معها من أروع وأعظم ما تقوم به. وقد رفعت الحظر عن مفاتيح لغتها كلّها، وقلبت معادلاتها مع العادات، وصارت إشراقاتها الذّهنية حكرًا عليه وحده من دون سائر الرّجال.

تتذكر الأمس حيث كانت في برج مهمل تدور، وقد دنا منها عشّاق الأرض جملة وتفصيلًا، وأحاطوها بعيونهم الذّهبية، وقلوبهم الغريبة، ولكنها كانت تتراجع أسفًا وألمًا على ما اكتشفته مع الأيّام من رخص المشاعر، وبيع الكرامة، وانحناءة وداع لأخلاقيات الحياة. لقد وعت أكثر من غيرها أنّهم ممثلون حقيقيون بلباس جميل، وأنّ مسرحياتهم المتجسدة على أرض الواقع لن تبقى مدى الحياة، وأنّ عشقهم ليس بعشق، إنّه غرور التّملك والسّيطرة لكلّ ما هو ثمين، وهي بنظرهم ثمينة.

لكنّه كان يختلف عنهم، هو الّذي سهر مع مسرّاتها، وسكن أحزانها، وسجد لله شكرًا على النّعمة الّتي قدّمها له، وأدرك أن جمالها يناسبه، وكان يؤمن شديد الإيمان بكلّ كلمة تصدر منها، ورأى فيها دستوره المجيد. وكان كلّما انطوى على نفسه، يشعر بمدى خسارته

للأوقات الثّمينة الّتي أشعرته بأهميته عندها. فقوة الإنسان لن تكون بالجاه ولا بالمال ولا بالألقاب، إنّما هي في شيء واحد ليس بمقدور أي أحد أن يمنحه، هو تقدير الآخر ورفع قيمته في نظر الزّمن والتّاريخ.

إنّ التّاج الّذي وضعته على رأسه، هو تاج الحبّ والتّقدير والاهتمام، تلك الصّفات أو القيم الّتي يسعى أي إنسان إلى الحصول عليها، ولا يمكن أن تصنّع في مصانع وطنية أو أجنبية. هذا التّاج المرصّع بجواهر مستخرجة من قلبها فقط، قد حرّك قلمه، فنفض الغبار عنه، وأزال صدأ السّنوات، وانبرى يكتب ويكتب حتّى كتب في رسالتها الأخيرة لها، وقبل ساعة من إقلاع الطّائرة ما يهزّ النّفس الإنسانية.

ـ «أعاتبك يا زمن على ما فعلته بي، مع أنني أحببتك وتعلّقت بك وصنتك، لكنّك للأسف لم تنصفني. أعاتبك لأنك كبّرتني وأنا ما زلت طفلًا، وحرمتني من مراهقتي وجعلتني فجأة رجلًا. وأضفت إليّ الهموم والمسؤولية، وحمّلتني على ظهري غموض المستقبل وعذاب الماضي وتعب الحاضر. أمّا أنا فلم أبادلك سوى الحبّ والأمل، أحببت شروقك، وشاركتك غروبك، ونمت على مغيبك، فلم أتمنَّ لك سوى الخير والأمن والأمان، وما أحببت لك سوى النّقاء والصّفاء، ولم أبادلك سوى الاحترام والتّحية. كنت لك حاميًا ومدافعًا، راعيًا وممانعًا. لكنك أنت، أنت لم تعطِني حقّي، ولم تحفظ فنّي، وجعلتني في بعض الأوقات أبكي على الأطلال، وأحزن وأغنّي حتّى جعلت

من أعيش معهم غير مقدّرين لي، ومن أحببتهم أتيت بهم متأخرين، وجعلتني وإياهم مجتمعين حينًا وأحيانًا غير مجتمعين، وجعلتهم في أماكنهم متألمين. فما بك يا زمن تقسو عليّ وتنتقم؟ أبيننا ثأر قديم أم جرح أليم؟ أم أنّ حبّي لك جعلك تستعين بقلبي وتستهين بعواطفي؟ أتمتحن قوتي أم تستغل محبتي؟

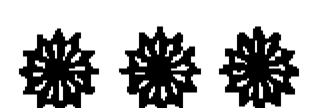
لن أقول لك شيئًا بعد الآن؛ ولن أعاتبك أكثر لكنك يا زمن لن تهزم إرادتي ولن تنال ضعفي، ولن تسلبني مَنْ أُحبّ ولن تجعلهم تعساء وبائسين. نحن قوم تعوّدنا على الصّبر وقوة الإرادة، وقد ازددنا قوة وعنادًا بأفكارنا وحروفنا وكلماتنا، وكلّما قسوت علينا، ازددنا حبًّا، وكلّما فرّقتنا وأبعدتنا ازددنا شوقًا وعشقًا. فأنصفْنا كما أنصفناك، وبادلْنا الحبّ كما بادلناك، ولا تَزِدْها علينا فيكفينا ما نحن فيه. علّنا نحيا مع بعضنا مرتاحين ومشتاقين، ونكون على درب الحبّ والورود عائمين.

فيا زمن، إنّك تأتي مرة واحدة، اجعلنا نعيش حياتنا بالحبّ والفائدة، واجعل حياة من نحبّ ونعشق رائدة وسنكون لك من الشّاكرين».

ذهلت من كلماته الّتي خاطبت قلبها، ومن عنفوانه وصلابة إرادته، فتحرّك قلمها صارخًا، إنّه الرّجل الوحيد الّذي ارتفع عن تقلبات الأهواء، وعن صخب الحياة، هو ألزم روحها أن تكتب بصفاء فكري، ونقاء ذهني، فحبست نفسها مرارًا وتكرارًا لتجد الكلمات الّتي تليق

به، والعبارات الّتي يستحقّها. إنّه لشيء نبيل أن نلتقي بمن يقدّروننا، ويعيشون من أجل راحة بالنا. إنّ أكثر النّاس يتكلمون على المثل العليا، ويعدّون أنفسهم ممارسين لها، ولكنهم في عماهم يتقلّبون، فهم لا يستطيعون عيشها. هنالك رجال كثر خلعوا رداء الأخلاق عن أنفسهم، ولم يلبسوا أي رداء آخر، فكانوا مثل الهياكل يمشون من دون وجود، بينما هو جعل من الفكر ثوبه، ومن العلم ضياءه، وكان بكلّ معنى الكلمة رجلًا، وكان أن التقى بمن ارتدت الثّوب نفسه، فشعرا بالرّضا النّفسي.

وكان أن عبّرت بشكل فجائي عما تشعر به، كل عظماء العشق كانوا كذلك، يعبّرون بشكل جنوني، وربما تصير معه عظيمة العشّاق، فيفوق حبّها حبّ ولّادة بنت المستكفي لابن زيدون، وحبّ ليلى لمجنونها، وحب أدونيس لعشتروت.



«حبُّكَ لعنةٌ أصابَتْني، فأردَتْني قتيلتُكَ...»

دخلت غرفة الجلوس بعدما أتعبها الانتظار، لقد غابت الشّمس وبان القمر، وودّعت عناصر الطّبيعة كلّها، وتوجّهت صوب مكتبها، علّها تلهو بقراءة كتاب ما، أو كتابة خاطرة، أو الجلوس مع اللاشيء... هي ما زالت تنتظر وصوله، راجية المولى وهامسة له أن يمرّ الوقت بسرعة، وجهها الشّاحب أثار كل من حولها، فطرحوا تساؤلاتهم الملحة، فردّت بصفائها الملائكي المعتاد مبتسمة:

«إنّه وجع الذّاكرة، عندما ترتطم بموجات من الحنين».

هذه الذّاكرة عندما تعصف بالإنسان، تحيله إلى مخلوق يخاطب روحه بصلة خفيفة، علّها تهدأ. وفي ميدان الصّراع الخفي هذا تستطيع حواسه أن تشعر بذلك، فلا تتمكن من التّفرغ له لأنه موجع، ولا الابتعاد عنه فلا سبيل للشّفاء منه.

انطلقت صوب مسائها وحيدة، وفي وحدتها وحريتها الفكرية تكاد تشبه فقّاعة انطلقت صوب المدى وبحوزتها أفكار كثيرة، ولكنّها ما زالت تجوب المدى، من دون أن ترسو في مكان مناسب لها. لقد عثرت عمن يكون معها في رحلتها الفكرية، ولكنهما تائهان في هذا

المدى الواسع، من دون أقنعة داخلية. ليس بينهما وبين العالم الخارجي أي صلة، لأنّه عالم خدّاع ومنافق. لكنهما سجينا الحرية، حريتهما لم يعثرا عليها، ولم يحصّلاها بعد، كل ما في الأمر أنّ هذا الحب يحمل أفكارًا هدّامة وهدّارة، ولكنّه متى يفجّر تلك الفقّاعة ويخرج منها؟ إلى أي مدى سيكون درجة احتمالهما لتلك الآلام النّفسية العاصفة بهما. ربما تحررا من ألم معيّن في الحياة، ولكن الألم أنواع، وهما لن يعيشا إلا به كي يوجدا كيانهما ويحافظا على توازنهما الإنساني.

جلست إلى مكتبها وفتحت درجه الأوّل كي تحضر ورقة تتنفس بها لوعة أخرى، وتكتب عليها حزنًا آخر، تخفّف بها جزءًا من اللّوعة والعذاب والشّعور باليأس، وعندها عثرت على ورقة منفصلة كتبتها منذ عام، عليها كلمة معبّرة كُتبت بحبر الدّموع:

«إنني أحسدها على ما تمتلكه، من حبّ يحيل حياتها إلى حياة سعيدة، يا إلهي متى أجد السّعادة في الحب؟».

الحب مفتاح سري في الحياة كي تكمل بنجاح وقوة ما بدأته بضعف وتعب، وقد عبّرت ببساطة تلك الجملة عن قسوة ما مرّت به. ولكن الحبّ الآن قد وجدته في حياتها، فهل تجد السّعادة الكلية، أم سعادتها ستكون بسيطة كعادتها؟ هي الّتي جنّت به كجنونه بها، عساها تفعل في زمن يحتقر العلاقات السّليمة ويواجهها ويقابلها بالرّجم فقط، لأنّها لا تناسب شريعة الغاب المسيطرة على عقولنا الجاهلة؟

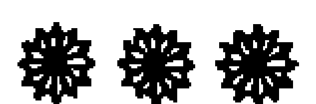
كلاهما يعيش الحرمان، وسر وجودهما يكمن في أنهما أعطيا

ولم يأخذا، وبقدر ما منحا من حياتهما الشّيء الكثير، أخذت منهما الحياة ما لا يقدّر بثمن، أخذت منهما الاستقرار وهناءة البال والعيش الرّغيد، وجعلتهما رهينَي الوحدة.

تلتفت صوب السّماء، لتنظر إلى تلك الفراشات الملوّنة، الّتي تكاد تختنق في تلك السّماء البلوريّة، الّتي لا تهدأ فيها أسراب العصافير المهاجرة من وطن إلى آخر، ثمّ تشعر وكأنّ الأغلال تكبّلها لتصير دمية تدفن أشواقها بين يدي طفل صغير، إنّها الوحدة تعاود الاتصال بها، وإدخالها مجددًا إلى عالمها، فقد أتقنت مع مرور السّنوات مهنة الابتعاد عن النّاس، والانزواء في ركن غريب من أركان مكتبتها الضّخمة، وحسبت أنّ لعبة الحياة هي الّتي زجّتها في هذا الرّكن، فعرفت حينذاك كيف تمارس لك المهنة متى تشاء، والتّقرب منهم متى أرادت ذلك. لكنّها الآن تريده إلى جانبها، تشتاق إليه، تبحث عنه في كلّ زاوية من زوايا الأنترنت، من دون أي نجاح يُذكر.

كان وصوله إلى الكويت إشارة جديدة لها، ذلك المكان الّذي لم تزره يومًا ما، لكنّها تكلمت عليه بإحدى رواياتها، ووصفت صحراءه، وها هو اليوم يعاود الظّهور مرة أخرى بعبور آخر.

عاد إليها الهدوء، وبقيت على هذه الحالة حتّى رنّ هاتفها معلنًا وصوله بالسّلامة، ففرحت بذلك، والشّوق يغمرها ويلامسها مع النّسمات الهائمة صوبه، الهاربة من الحياة. وتمكنت حينذاك من أن تغفو من دون أحلام.



فتّحت عينيْها في صباح اليوم التّالي، كان أوّل ما وقع عليه نظرها شاشة هاتفها، كلمة سرية بسيطة تفصلها عن قراءة الرّسالة الأولى من بلاد الغربة، من أرض العرب، تتلفّت حولها لتستشعر غربتها اليوم. إنّه شعور غريب أن ترافقه في سفره وتبقى روحها معلقة عنده وجسدها يتمايل في بلد آخر.

في ذلك الصّباح الماطر، استقبلت ظهوره الصّباحي مع فنجان قهوتها العابق بالحبّ، هي الّتي شعرت أنّها بحاجة إلى جرعة رجولية زائدة، وإلى أن يكون من ضمن جدول كفاياتها اليومية، الّتي تتناسب مع مواطن الرّوح الّتي صارت تعبق به. وتنظر إلى رسائله الصّباحية الّتي تليق بها كي تشبع روحها الهائمة فوق ربوع موطنه الكئيب.

لقد دخل قصرها المهجور المظلم، وخاطب قلبها المكفهر، وعانق آلامها الفريدة، واستسلم معها إلى ترنيمات صباحية، تحقّق له كينونته الرّجولية، وهي قاومت بقدرة غريبة حبّه، ولكنّها لم تعد تقوى على العيش من دون طعم كلماته المنكّه بأسلوب غريب. تعشقه،

وتعشق تلك الكلمات الرّنانة في أذنيْها. وكانت أن أرسلت له سلامها البارد ليكون ردّه:

ـ كم أحبّك، وأحبّ تبادل تلك الصباحات العابقة بالحبّ معكِ!

وبكبسة زرٍ سريعة كتبت له وكأنّ قلبها هو الّذي يكتب لا عقلها ولا أناملها:

ـ «كم أصبحت أعشق الصّباح لأجلك والاستيقاظ باكرًا، وقد صرت أعشقه أكثر لأنّ فيه طعم أنفاسك الممزوجة برائحة الفجر النّدي».

بقيت تكاتبه في ذلك اليوم، ولم تشعر بالملل والرّتابة حتّى حلّ العصر، وقد عجز جسدها عن حملها، وأنهكها تعب الجلوس أمام تلك الشّاشة، لكنّ قلبها ما زال يخاطبه ولم يكتفِ بالوقت، بل إنّه لم يشعر بمروره. وقد عجزت الرّوح عن البقاء صامتة، بعدما عجزت العيون عن تبادل النّظرات، فها هو يظهر أمامها بعينَيْه الجذّابتَيْن، المتّقدتَيْن ذكاء وحبًّا، وشعره الأملس النّاعم، وتقاسيم وجهه السّعيدة برؤيتها، كأنّها تقف أمامه وتبادله الحبّ علنًا أمام العالم أجمع.

لم يكن ينقصها غير عناق الأحبّة، بعدما اشتعلت نارها الجديدة مجددًا، فشعرت كأنّ السّماء تدلّت من الأعالي لتعانقهما معًا، سماء صارت مبتسمة وهادئة كهدوء قلبيْهما، ونسيت ذئاب القلوب الّذين حلّوا سابقًا في حياتها، ونسيت الذّاكرة الّتي لن تذكر، واستقبلت

ذاكرة جديدة تبنّت فيها رجلًا يغنّي الحبّ والجمال، ولم يعد يناسبها الوقت ولا الزّمان ولا المكان لاستقبال رسائله. وقررت أن تبدّل أركان غرفتها، كي يليق بهذا التّحول الجديد في حياتها، فجعلت أريكتها وجهازها المحمول قريبيْن من النّافذة المطلّة على ذلك الحقل المترامي الأخضر، وتلك الزّهور النّدية الملوّنة وفقًا لنبضات قلبها، وتلك العصافير المزقزقة في حضن أمّها السّماء، والّتي صارت تسابقها إلى كلماته لتغرّدها بصوت شجيّ فتّان.

وكان كلّما قال لها أحبّك يا سيّدتي، تفقد القدرة على تركيب جملة كاملة، وتعيد عقد هدنة مع نظام اللّغة، علّها تنجح في تلك التّجربة الجديدة، لتبدأ الأحاديث اللّيلية، والكلام يطول، والأخبار تتزايد، وكلّ ما في الكون يضحك لهما. وكان أكثر ما يثير جنونها ما تسمعه وهي تجلس خلف شاشتها، لا شيء عندها سوى هدوء يومها، وسكون ساعاتها، أمام جنون زمانه عليه، وصيحة الحروب المتكررة عند أبواب منزله، وغضب زوجته اللامبالية، وصراخها اللامعهود. عندها تنزعج أكثر، وتتمنى لو تحطّم زجاج الشّاشة كي تنتقل إليه وتعانقه غصبًا عنها، لأنّها امرأة لا تعرف أهميته.

أهنالك ما هو أكثر إثارة من هذا الحبّ الكبير الّذي يلهث وراء الشّوق؟ هو الّذي سمّى نفسه العاشق المجنون لأنّه عاشق لها في زمن اللاعشق، عاشق لقلبها وسط رائحة الغياب، ولكنّها أكثر وعيًا، كما كان يخبرها، وتملك القدرة على التّغلب على مصاعب الغياب وتعبه.

أي وعي صباحي يحدّثها عنه، وهي الّتي فقدت الوعي مذ أن تعرّفت إليه، ولم تعد تدرك أي شيء من دونه، وبسمته عندها أهم من الدّنيا بأكملها. تلك الابتسامة الّتي تشدّها وتقتلها وتحييها، وتجعلها أقوى من الماضي والحاضر، لتصير معه شيئًا واحدًا، هي الّتي تعوّدت أن تعيش الظّروف كما هي، لم تعد تقوى على عيش أي ظرف بعيدًا عنه، وأن لا تشعر بسعادته حين تكون قريبة منه، لتجعله رجل الابتسامة الدّائمة.

إنّ فرادة ابتسامته تجعلها تعيد اكتشاف ذاتها، كي تتأكّد أن هناك شبهًا قويًّا بينهما، هي الّتي تعوّدت على الابتسامة بوجه كل شيء، الأهل، والرّفاق، والجيش، وحتّى المارة في الشّارع، رأت من يعشق ابتسامتها وتعشق ابتسامته.

ميزة غريبة تجمعهما، وتجعلهما يقدّسان الأمر نفسه، ويبتعدان عن تلك المقولة: «كلما أقمنا في محننا، أصبحت أقوى على إيذائنا»، واستبدالها بمقولة: «كلما أقمنا في محننا، علينا التّغلب عليها بابتسامة، حتّى لو قضينا العمر كلّه وراء تلك الشّاشة، نجلس مع قلمنا وأناملنا السّاحرة...».

هو اعتاد على التّبختر أمامها، والتّحرك بهدوء في خيالها كي تعيش لحظاتها به، ها هو يفتح هاتفه النّقال ويرسل لها رسالة صغيرة كي تشرق شمس أفكارهما باكرًا كعادتهما الصّباحية الّتي لم يملّا منها قطّ.

ـ صباح الخير يا معشوقتي ومجنونتي، أعرف أنّ انتظارك طال لي في هذا الصّباح، ولكنني متعب قليلًا في غيابك، تأكّدي أنّني آدم وأنّك حواء، أميرة قصتي، وحكاية حياتي الّتي لن تنتهي إلا بموتي.

لذا، أريدك أن تتأنّقي يا عمري ... يا حبّي .. فأنا خُلقت لأبقى مذهولًا بك مدى الحياة.. بهذا التّميّز .. وهذا الذّكاء .. وهذا النّجاح .. على الرّغم من الألم والإحباط والعراقيل الّتي تحيط بنا ... ما أجمل عدالة السّماء!

قرأت رسالته بنهم القراءة، وشعرت بكلّ حرف وجّهه إليها، وبدأت طقطقاتها المعتادة بكتابة رسالتها ردًّا عليه:

أستقبل قلبك فوق عرشي... أحنّ إليه، فأنا أحبّك والأمر ليس عاديًا، وليس افتراضيًا، فقد كان حبّنا صدفة غريبة، وحقيقة غير ملموسة، إذ حمل طرافة اللّقاء وجمالية التّعارف، ليوصّلنا إلى أن نعيش طاقة غريبة من الانفعالات المتدلية بيننا. إنّه عشقنا غير العادي وانفلات اللّغة المخملية فوق جهاز إلكتروني سيخلّد صفحاته الزّمان. أنّت وحدك عرفت كيف تفهمني، وتنصت إليّ، وتتأثر بكلّ كلمة أقولها، ويكفيني أن تكون أحبّ النّاس إلى قلبي، حتّى أكون كل ما تريده. أكون أمّك وحبيبتك وصديقتك وزوجتك. وسأسمع دائمًا التّفاصيل الدّقيقة الّتي قد تزعجك، لأن ذلك يورطني أكثر معك، لتصير أجمل ورطة في حياتي.

خرجت من المنزل وتوجّهت إلى بيت العائلة لكي ترمي بثقل همومها بين ثنايا أركانه الّتي احتوت كلّ ما كانت تشعر به عندما كانت طفلة صغيرة تعبث بالحياة كما تعبث بدميتها. وصلت إلى منزل الطّفولة وجلست على الأريكة الّتي ارتبطت بها منذ الصّغر، وشعرت بانفصالها عن ذاك الواقع الّذي لم تعد ترى نفسها فيه، وشردت:

ـ كم كنت كبيرة فيه!!... والآن عدت إلى طفولتي الّتي أحبّها.... لكي أرسم أمنياتي الطّفولية على قوس قزح شارد فوق مسامات يومي.... وأنا مدركة أنّ بعض الأمنيات ستتحقق على الفور، وبعضها الآخر قد يستغرق وقتًا بحسب الأمنية نفسها. وتمكّن الزّمان من الحصول عليها. أتتحقق أمنيتها في أن تراه إلى جانبها؟ أتعيش معه قصة حب خالدة خلود الزّمن لكي يتوّجاها بزواج مميّز يتحدث عنه العالم كلّه الواقعي والافتراضي. عالم الحياة، وعالم الفايسبوك الّذي شهد أول رسالة حب كتبها لها. كم فاجأتها كلماته يومها! ولم تعرف كيف تردّ، واقتصر ردّها عليه برسالة طريفة وفقًا لظروف غريبة كانت تمرّ بها.

لقد كانت تعيش انفصالًا صامتًا مع نفسها، بعدما أدركت أنّ الزّمن قد غيّرها، وصارت تشعر باللاشيء، تلك الحالة كفيلة بأن تجعلها متيقّظة لأن تتلقّى كلماته بشيء من الصّخب القاتل والقول المميت، لأنّها بكل بساطة تعاني الحب، لكنّها لن تبكي، لقد اكتفت من البكاء.... لقد بكت عمرها السّابق كلّه، ولا يمكنها أن تعرض نقاط

ضعفها له، كان يجب أن يدرك منذ البداية أنّها مختلفة عن النّساء كلّهن، وأنّه لا يمكن أن يساوم على حبّها مهما طال الزّمان، فهي ملكته وهي الّتي رأته كل شي في حياتها، وهي الّتي حلمت بأن تكون العمر كلّه معه، وطفلهما الصّغير بينهما، كم كانت أحلامها حمقاء!

محتاجة إلى وجوده إلى جانبها، لكي تتخلص من عذاب الضّمير، الّذي يغطّي كامل أناقتها، موجوعة بقدرٍ غادرٍ جعل الرّوح تعاني لا الجسد، داء النّوى أصابها وفتك بها وحمّى البعاد أمطرتها بوابلٍ من الآهات حتّى كحّل الحنين عينيْها، ونسجت العذابات كفنها الأسود.

لقد حلمت به دائمًا، هي الّتي تعرف أن مجرد الحلم بأحد كفيل بقتل الحلم نفسه، كل ما تتخيّله صعب التّحقق، وكل ما تتوقعه لا يصير، وحدها الأشياء الّتي لم تتوقعها كُتبت لها الحياة. فاجعة أخرى تعانيها،فمنذ صغرها أدركت أنّ ما تراه في خيالها يكتب له الفشل في واقع حياتها. فكيف تخبره أنّها تمتلك حاسة سادسة، تقتل كل ما تتخيّله؟ كيف تخبره بالأمر وقد صار طيفه يرافقها حلمًا وواقعًا، وجودًا وخيالًا؟ كيف تقول له إن توقّعاتها المستقبلية، لا يمكن أن يُكتب لها الخلود لأنّها وعتها؟

رافقها في تلك الأوقات صدى الأنين، وحمّلها أكثر الآلام، ولم يسكّنه أي ذكرى قد تبدّل الحالة الّتي وجدت نفسها فيها. سر الحياة قابع في التّغلب على المعاناة، وهي لا يمكنها مقاومة حبّها له، وقد صارت متجذرة فيه، فهل تكون نهاية حبّه بداية؛ باب جديد يفتح أمامها؟!

من دون أدنى تعليق، كتبت لها الحياة مفاجآت كثيرة، وكانت في كلّ مرة تترقب حبًّا تدرك أنّه سيهرم سريعًا كالجسد، لكن روحها بحاجة إلى أن لا تشيخ، فكيف السّبيل إلى ذلك؟

وها هي وحيدة، تعانق لمسات حنين سوداء، تحرقها ليصير وجعها من الدّرجة الثّالثة، فيجلدها في الثّانية مئة جلدة وجلدة. وتطلق روحها صوب هذيان جديد لتبقى مشتعلة بين خناجر البقاء إلى جانبه وسكاكين البعاد عنه.

يا لسوء حظّها! عندما أدركها الحبّ الحقيقي، وقعت في شرك ضخم، لا تعرف كيف تقوم منه؟ أيعقل أن تحبّ مَنْ لا يحقّ لها؟ أيعقل أن ترقص وتنطلق في حقلٍ مليءٍ بألغامه القاتلة؟ أتكون الحبيبة والعشيقة والخائنة في آنٍ معًا؟

تركت المنزل وتوجّهت صوب شاطئ البحر علّه يخفّف من آلامها، التقت بأناس كثر، منهم مَنْ يزوال رياضة المشي، ومنهم من يجلس على شاطئ البحر يرقب أمرًا أو يراقب المشاة، ترتسم على وجوههم إشارات غريبة، وكأنّهم يفقدون الرّغبة بالدّنيا، وإذ بصوت من بعيد يشدّ سمعها:

«بصّارة، بصّارة، اعرف بختك وطالعك، بصّارة، بصّارة...».

لم يسبق لها أن تكلمت مع بصّارة، أو سألتها عن حظّها العاثر، ولم تكن تعتقد بكلماتها.

وقفت أمامها قائلة: «اعرفي حظك يا فتاة، خطوط سوداء أراها عن بعدٍ..».

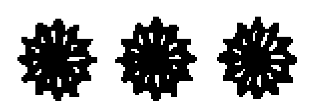
نظرت إليها، ولم تعد تذكر أنها بحاجة حقًّا إلى الكلام، وربما في صمتها عبّرت عن لوعتها أكثر. فقالت لها: «ماذا ترين».

ـ «أرى أن طريقك طويل، وصليبك ثقيل ودربك موحش مظلم... باحثة أنتِ وسط إغراءات الحياة عن الهدوء، ولكن يا فتاة حظك مبتور مبتورٍ... ولا بدّ من الفراق....».

وقعت كلماتها كالصّاعقة فوق جسدها، أدارت وجهها لتخفي دمعة كادت تفرّ وتكدّر صمتها... وقد ولّدت دمعتها قلقًا غريبًا ما ذاقت مثله أبدًا.

حملت صمتها ومشت وحيدة، منبهرة بكلام البصّارة، فقد أدركت أنّ كلّ اثنين مهما التقيا لا بدّ من أن يفترقا، وطالما صليبها ثقيل، فدربها لن يكون عاديًا، بل موحشًا وقاسيًا... وها هو البحر الممتد أمامها يتحوّل إلى أنثى تكلمها صارخة في وجهها:

«كفاكِ ضعفًا واستسلامًا، كوني أنتِ فقط، فصعب عليكِ أن لا تكوني، دعي الحوت وحده، كي لا يتناولك وجبة شهية يوم الرّحيل، واتركي أطلال الزّمان تندثر بمفردها كي لا تفقدي رونق اللّون الفار من وجهك تدريجًا».



«يقولون: إنَّهُ يهواني...
بل قولوا: يهوى فراقي...»

قررت أن تزوره في عيادته الخاصة، وأن تعاتبه، وأن وأن...

وصلت إلى المكان، دخلت إليه، وقالت:

«أنا مريضة نفسية بك، وعليك أن تعالجني من شرك حبّك، أنا المعاناة والألم، أنا متورطة بك بالفعل، فاشفِني... لقد خيّبتَ أملي، حدّثتني عن السّعادة والفرح، عن الأمل والحياة، وأنّنا جئنا إلى الحياة لنكون سعداء، وأي سعادة كانت في ذبحي؟ كيف تمكّنت من قتل سعادتي بيدك؟ كيف تريدني أن أكون سعيدة بعد الآن؟ وأنا ألتاع بنارك».

نظرت إليه مليًّا، وهو جالس ينظر إلى الأرض، وكأنّ هموم الدّنيا اجتمعت فوق رأسه، لم يعرف ما يقوله لها، في حين أنّ بريق دمعتين لاحتا لها.

صمتت بعد أن شعرت بالإهانة مرتين، مرة حين أحبّته ومرة حين وقفت أمامه، وهي لا تدري كيف تتصرف. أيعقل أن يغلبها ويغلب قيمها؟

رفع رأسه بسرعة، وتلاقت الأعين كأنّها المرة الأولى، وقال:

ـ «لقد أحببتك أكثر من نفسي، وأحببتك أكثر من الكلّ، وأحببتني أقل مما أستحق...

لستِ خائنة، ولا عاشقة سيئة الحظ، إنّما أنت حبيبتي وزوجتي المستقبلية، ومن أريد أن أكمل حياتي معها».

ـ «أتظن أنني قادرة على أن أبدأ معك مجدّدًا تلك الحكاية المؤلمة؟ بدايتنا الجديدة ما هي إلا كذبة كبرى... لن أعيشها كي أخلق أملًا جديدًا في الحياة. أنت لن تكون الأمل أبدًا، ستكون دائمًا ظلمة حياتي ودربًا مملوءًا بالأشواك، ومخدّرًا سأحقن به نفسي كي أرتاح برهة من الزّمن... أنت خيبتي المستقبلية، وألمي الجديد، ونقطة ضعفي...

سألملم أجزائي المبعثرة عند أعتاب روحك، وأرحل... نعم، سأرحل فلم يعد لي أي مكان يُذكر هنا، سأسافر وأترك البلد لك ولأمثالك من أشباه الرّجال، كي لا أتعثر بك مرة أخرى. فأنا في علاقتي معك أشبه بمريضة تحتاج إلى أبر مورفين، لتخفف من وطأة الجرح. سأرحل إلى حياة أخرى لا نزوات فيها، لا هفوات، لا أخطاء، وسأحقن نفسي بمورفين النّسيان، لأبدأ تجربة أخرى مع الحياة، تجربة لن تجعلني أحتضر، وأتناول المسكنات العشقية، بانتظار غيبوبة مع الحبّ المحرّم».

يتنهد تنهيدة كبيرة، يخفي وراءها ألمًا عظيمًا، ويبادرها بالسّؤال:

«لِمَن تتركينني، لامرأة قتلتني بدلًا من أن تحييني، لامرأة صنّفت نفسها

سيّدة النّساء، وهي لم تتربع على عرش قلبي، لِمَن تتركينني؟ أضيع بمفردي في عالم افتراضي مليء بالكذب والخداع.... أنتِ وحدكِ لم تكوني امرأة مخادعة قطّ لأنك تمتلكين قلبًا طيبًا، وروحًا عطرة..

اليوم، أحتاج إلى أن تعودي إليّ من جديد، أحتاج إلى أن أترجم إحساسي معك، لقد اختلطت عليّ المشاعر، وصرت منهكًا في الحبّ بشكل عجيب. أنا لست قاسيًا كما تظنين، ولست كاذبًا كما تفكرين، أنا رجل أحبّ بصدق، ولا أريد منك سوى أن تحبّينني.... فلا تكوني لغمًا يفجّر قلبي، ويجعلني أسير النّسيان، لا أريد أن تكوني امرأة افتراضية في حُلمي فقط... أريد أن تكوني الحياة بكاملها. كوني متفهمة».

_ أي تفهّم للخيانة؟ وفي أيّ قاموس أجد هذا التّفهم؟ لا أريد ذلك، لا أريد سوى أن أنصب لك فخًا قاتلًا في ذاكرتي وحياتي، علّك لا تزورني، وربما أغتالك في انفجار داخلي كي تصير شهيد الهوى، عندها سأرتاح وأرقص رقصة الوداع.

تترك العيادة وتخرج غاضبة، وعلى وجهها علامات الكره... لقد سقطت قناعاتها القديمة، وسقطت المبادئ وتلبّدت الدّنيا بسحابة سوداء... هي الّتي أحبّته أكثر مما يستحق لن تسامحه على ذلك، ولن تغفر له.

كانت عيناها تدمعان وهي تسير وحيدة في الشّارع، تراقب النّاس، تنظر إلى العشّاق نظرة سخط وغضب. تلامس أوراق الحنين، وذاكرة الماضي الّتي حفرت في تلك الأمكنة بعد زياراتهما الجميلة إليها.

لقد كان لقاؤهما الأول في هذا الشّارع الجميل، الّذي يعج بالنّاس ليلًا ونهارًا. دخلت المقهى الّذي جلست فيه في ليل الرابع عشر من شهر شباط في عيد العشّاق الأوّل لهما، جلست إلى الطّاولة المقابلة لطاولتهما وأطالت النّظر إليها. جذبتها الذّاكرة إلى ذلك اليوم الرّائع، حين قال لها:

«لأوّل مرة أراك خجولة، لم أعهدك هكذا من قبل، لطالما كنت المرأة القوية أمامي، اليوم رأيت خجلك بأمّ العين. لقد أخبرني أبي يومًا، أنّ المرأة مهما كانت قوية، لها نقطة ضعف في مكان ما، وأنت اليوم لستِ أنتِ، أنت اليوم المرأة العاشقة الخجولة من لقاء حبيبها، وكأنّه اللّقاء الأول».

كيف ورطت نفسي مع هذا الرّجل؟ كيف جعلت رجلًا يستفزّني منذ اللّحظات الأولى، يكون رجل قلبي؟ كيف أغرقت نفسي في غيبوبة عشقية، ستؤلمني مدى الحياة، أيّ فلسفة غريبة هذه لا أفهمها؟ أحبّه وأكره حبّي له لأنّه كذبة عمري الطّويلة الّتي صدّقتها وعشتها.. ربّاه، كم أحتاج إلى وقت كي أنساه، وأنتزعه من أحشائي! وأنتزع كلامه اللّذيذ من عقلي... أدرك أنّ الأمر صعب، وأنّ الكلام سهل.

خرجت من المقهى وهي تعرف أنّ الذّكرى لا تستحقّ هذا العناء منها، لطالما حلمت بأن يكون زوجها، وأن تنجب منه طفلها الأوّل، وكانت تتمنى أن يكون بكرها فتاة تشبهه، مرّ عامان على ذلك اللّقاء ولم يتزوجا ولم تأتِ الفتاة ولن تأتيَ أيضًا.

مشت قليلًا في شوارع بيروت السّوداء كسواد قلبها، وسارت إلى نهاية الشّارع ووصلت إلى شاطئ البحر، توقفت في مكان تراقب مغيب الشّمس وهي تودّع الدّنيا وتعانق حبيبها الآخر؛ البحر، لتبدّل لونه من الأزرق السّماوي إلى لونها المفضل البرتقالي، وإذ بسيارة تركن بجانبها. استرقت السّمع إلى صوت أغنية عراقية غريبة المعنى بعنوان: «شعلومة».

«شعلومة وين الحلو من يومها... تاعبني ليه حارمني نومة عيني وهو بسابع نومة

مشتاقلك ومو داري مشتعلة بي الحب ناري سهرانة أنا ومخليني حاير وأعدّ نجومها.....».

سمعت فقرة منها ولفّها الحنين إليه، إلى ماضيها معه، إلى لقاءاتهما، والجلوس طويلًا لكتابة رسائل العشق، إلى زياراته المتكررة إلى معهدها، إلى أسئلته الكثيرة والمختلفة.... وشعرت بأنّ كلمات هذه الأغنية هي إشارة من القدر، ربما إشارة مبهمة وخفية، أو ربما واضحة، جلية المعاني.. بكلّ الأحوال هي الّتي آمنت مثله بإشارات القدر، عرفت أن تلك الومضة عليها استغلالها قبل أن تختفي، وأن وقوفها في ذلك المكان لتستمع إلى تلك الأغنية، هي إشارة قدرية مهمّة، تستحق منها لفتة إلى الوراء...

اتصلت به لكي تكلمه، ولكن:

«الخط خارج الخدمة».

شعرت وكأنّ إشارة القدر اختفت بسرعة لتردّها إلى صوابها، حتّى لا ترتكب خطأً جديدًا بعودتها إليه. رسالة القدر هذه المرة حَوَتْ ردًّا عكسيًّا، ولم تكن إشارة كاملة.

ارتسمت أمامها لوحة سوداء، حالكة وكأنّ ريشة الأيّام كوّنت من فحم ورصاص. لطالما كانت صبورة، وتخفف عن نفسها بالقراءة، ولطالما رفضت أن يتغلب عليها أحد، لكن هذه المرة ما الّذي جرى؟ ربما الغد أفضل، هكذا حدّثها عقلها، وهكذا ظنّت. لكن في كلّ مرة يكون الغد أسوأ مما قبله.

انقضى أسبوعان، كانا في غاية القسوة والبشاعة، مرّا ببطء شديد لتشعر بتعب الأيّام وهو بعيد، لم ترتكب أي سوء، لم تتصل به، لم تجعل الذّاكرة تتغلب عليها بل تغلبت على ذكرياتها، قضتهما بالدّراسة والعمل والبحث والانتقال من مكتبة إلى أخرى. فكانت تشبه المرأة الافتراضية الّتي تعيش بقلب افتراضي، وروح افتراضية وعقل عصري يثرثر بالنّسيان... فِعلَتُهُ دمّرتها وجعلتها تجول في كوكب آخر... لم تتمكن من النّوم كثيرًا وربما عانت تقلبات عديدة في تلك الآونة، ولكن وعدت نفسها أن لا تفكر به، فإلى متى ستحافظ على وعدها؟

عادت إلى عملها، وكانت تكابر على وجعها، لأنها قررت أن تنهي كل ما يربطها به، رتّبت أمور عودتها إلى المعهد لأنّه لم يكن أمامها خيار آخر. فقد اقتنعت أخيرًا أن ما جرى معها كان لعبة أخرى خاسرة مع القدر. لعبة لم تنتبه إلى جولاتها السّابقة فيها؛ فالإشارات

كانت ضعيفة. أكانت إشارات قدر من نوعٍ آخر غفلت عنها فغافلها، أو تغافلت عنها. لم تعد تدري...

قالت له ذات مرة: أخاف من القدر، فضحك ملء قلبه، قائلًا:

«القدر يا حبيبتي، يجعلك تمرين بأوقات سلام مع الذّات أكثر من أوقات حزن، لأنّ هنيهات الحزن يمكنك التّغلب عليها، إن أحسنت فهم الحياة، فافهميه يا حبيبتي، افهميه... لتعيشي بسلام ومحبّة ومن دون خوف منه.

أكان يمزح في وقتها، أم كان واعيًا لما يقوله؟ هو الّذي زرع في نفسها فهم الحياة، هو الّذي قرّبها من مفاهيم الدّنيا، أيكون سبب حزنها وتعبها؟ أيجعلها تقع بين مخالب الخطأ المحرّم؟ ويعدّه بتصرف سليم. رنّة هاتفها جعلتها تقوم من لحظاتها اللاواعية تلك، فتحت هاتفها لترى رسالة منه... أيعقل أن تكون منه؟ نعم، إنه هو..

فلتشفقي عليّ، أنا أحبّك، على الرّغم من أنني تماديت كثيرًا في جرحك وإيلامك، ولكنّني أملك روحًا لم تحبّ سواك، ولن تحبّ سواك... أتكونين قاتلتي ومعذبتي في الحياة...؟ حتمًا لا، لم تخلقي لذلك لأنك وادعة وداعة الحمل، ورقيقة رقّة الحمام، ومَنْ يمتلكُ قلبًا أبيض مثلك، لا يمكنه أن يعذّب أحدًا. إنّك حائرة، أعرف ذلك .... ومجروحة، لكن لا تجعلي أحاسيسك كلّها تموت... لا تنسي لحظات الحبّ الّتي عشناها معًا.. وإشارات القدر المتكررة، وفزع قلبك حين

أغيب عنك أو أسافر إلى بلد آخر. لا تغضبي مني، فأنت ما زلتِ حبيبتي وأعرف أنّني ما زلتُ حبيبك.

سالت دمعة حارقة على خدّيّ، لامست شفاهي فاحترقت الكلمات بلوعة اللّحظة. كيف أعيش معه؟ مَنْ يخدع مرة، قد يخدع عشرات المرّات.

لقد أحببته لدرجة خفت عليه من نفسي، وكنت أودّ لو يأخذ من عمري كي يرتوي من بقايا أيّامي وينعش حياته، وكنت أتمنى لو يشعر بقرارة نفسه، من أنا بالنّسبة إليه. لقد قَلَبَ موازيني كاملة بحيث لم أعد أقوى على العيش من دونه. عذّبني حبّه، ولايزال... ولا يمكن أن أعيش معه بذنب الخيانة.

تابعت نهار عملها بتعبٍ جسدي ومعاناة فكرية، وحاولت أن تتابع مسيرة عملها من دون أن يلاحظ أحد ما تشعر به. فرجل مثله لا يمكن أن ينسى...

حان وقت الاستراحة، فجلست جانبًا لتحصل على قدر من الرّاحة، أمسكت بدفتر صغير عليه بضع خربشات لطيفة العناوين، وكتبت بقهر ولوعة:

وطعنةُ حزنٍ تلقّيْتُها
بكاملِ أناقتي
واستقبلْتُها بابتسامةٍ
لأنّها ستطيلُ المكوث

فهل أكتبُ؟ وهل أُدوّنُ؟
كلماتِ احتفاءٍ بالمناسبةِ
أم أتركُ الكلمةَ لصاحبِ الطّعنةِ؟
إذ لا تليقُ به كلماتي ودموعي وابتسامتي...

تركت القلم وبكت بكاء مرًّا، لقد قهرها هذا الحبّ، فلم تعد تفكر بشيء آخر، لقد كان لها كل شيء، الحلم والحياة والعشق اللامتناهي، وصار الماضي والعذاب... وعليها أن تقاوم بعنف لا بضعف رغبتها بالبقاء إلى جانبه، وتتركه بعيدًا عنها كي لا ينهش روحها بعد أن دخل الحبّ أعماقها وجعلها مصلوبة به.

لقد انتهى حلمها في آذار، انتهى كل شيء بإرادتها العقلية لا القلبية، وبكت أمام قدرها الفارغ والممتلئ بالفراغ الكامل. انتهى عهد الحبّ الجميل واللّقاءات الحميمة، وكؤوس النّبيذ المعتّقة بالغرام... ودموع الشّوق على عتبات الغياب.... انتهى كل شيء بعد أن كان بالنّسبة إليها كل شيء... فكيف ستنسى رجلًا مثله، صرع قلبها وأرداها قتيلة حبّه من الوريد إلى الوريد؟ رجل مثله لا يُنسى أبدًا، بل يخلّد في الذّاكرة، وهو لا يرحل كغيره، باقٍ في خيالها وقلبها وروحها حلمًا لن يموت، حتّى لو مات الجسد يومًا ما. ولو سألها القدر ماذا تريدين من الحياة، لطلبت أن تعيش عمرًا آخر كما كانت تشتهي معه، فقد ولدت

يوم اعترف لها بحبّه، وتعمّدت أن تعيش هزائم حبّه معه بانقلابات عشقية جميلة المغزى. ووحده استطاع أن يسيطر عليها.

عندما كانت طفلة تعوّدت أن تتقاسم رغيف الخبز مع إخوتها، وقطعة الحلوى معهم، وكوب الماء أيضًا، ولكن معه لم تتقاسم الطّعام فقط بل تقاسمت القلب والرّوح، وأعطته كل ما تمتلكه من مشاعر وأحاسيس ولم تترك لنفسها شيئًا... تعوّدت أن لا تحبّ نفسها، فلماذا لم يعطِها حصتها من قلبه كاملة، لِمَ تقاسمها مع امرأة أخرى؟ اللّعنة على تلك المشاعر الّتي دمّرتها من الدّاخل.

عمرها سلسلة من العذابات الغامضة، تتخلّص من عذاب لتقع في آخر، أي شيطان جرّني إلى تلك الخطيئة؟ وأي سواد غطّى رؤيتي للحقيقة؟ وجعلني لا أدرك حقيقته مذ أن كنت أراه يغيب أحيانًا من دون الاطمئنان عليّ أو الاتصال بي، ويقول لي حين أسأله عن الأمر: «أنا مشغول».

مشغول بها، مشغول بجلساته اللّيلية معها، مشغول بحبّه الواقعي، وأم أولاده: رغد وسليم. كم سمعت أكاذيبه الّتي ترتدي أقنعة الرّثاء على غبائي. كم أكره الأقنعة! وكم أكرهه!!

وحدها زوجته استعادت أضواءه، واكتسبت وجوده إلى جانبها، وحدها تلعب في ملعبٍ كبير وفسيح من دون أي عدوة أخرى، تلك العدوة، هي أنا بغبائي... يحقّ لها أن تضحك عليّ حين تعرف أنني كنت المرأة الثّانية، وقد خسرت أوراق رهانها كلّها مع القدر.

أما هو فسيرقص طويلًا اللّيلة معها، لأنّها كسبت رهانها معه، وتمكّنت من قتلي في الحياة، حين رفضت صداقتي لها، وحين بقيت الزّوجة الأولى والأخيرة له. سيرقص هذه اللّيلة معها في حفل للتّكاذب الجديد، محتفلًا بعودة القناع القديم، وأنا لن أفعل شيئًا سوى تأمل هذياني المستمر به في لحظة ذهول وتحجّر للوقت.

ما أجمل المنفى! ليت باستطاعتي الهروب إلى منفى، سيكون الجحيم فردوسًا رائعًا لأنني بعيدة عنه. وسيكون الماء فيها عسلًا، والشّوارع متلألئة بنور قلبي الصّادق، حتّى لو لم يسمع الجميع باسمي، سأكون أنا في ذلك المكان، لأنني بعيدة فقط. وربما ألتقي ذات ليلة، وحشًا إنسانيًا آخر يحتفل معي في حفل جنائزي بتأبين الأخلاق والمشاعر الإنسانية الصّادقة. وسأكون حينذاك عارية من كل شيء.

غريبة هي الحياة، لا يشتعل الحب إلا بعد الفراق، فكيف أطارده في دهاليز الفراق، وهو يطاردني بطريقة عكسية؟ وثمة طريق واحدة لا مفرّ منها، طريق لن توصل إلى لقاء أبدًا مهما أرسل رسائل عشق وحنان واستعطاف، فالجرح أعمق من أي كلمة سيكتبها.

أغفو قليلًا في غرفة الجلوس، تداهمني كوابيس عديدة، أحاول الهروب منها، لا أريد لقاءات ولا نسيانًا يليق به، لا أريد ترهات الحب، ولا وداعاته.. رنّة هاتفي توقظني من تلك الصّراعات الدّاخلية... رسالة أخرى منه:

«حقيقة أنك تلك الإنسانة الطّموحة العصامية الّتي استطاعت

أن تحقّق جزءًا من طموحها لكن بجهدٍ جعلها تنظر إلى نفسها على أنّها نموذج غير عادي بين بنات حواء نتيجة انتصارك على ظروف ربما كانت تسير منحى لما كان سيجعلك تصلين إلى ما أنت عليه الآن لولا قوة عزيمة منك، أنت الّتي تريدين ظروفًا أفضل ومستوى أرقى، طموحك قتل فيك الإنسان الّذي تسعين إلى الظهور به طالما أنك الإنسانة الجميلة الّتي لا يناسبها إلا أن تكون كذلك بينما مستعدة على أن تدوسي على الكلّ، ليس عدوانية بل غرورًا لأنّك الأقوى، والّتي لا تحتاج إلى غير نفسها، بينما هي محتاجة إلى الكثيرين ممن يحبّونها أو حتّى ممن ينافقونها..»

صدمة أخرى أضافتها تلك الرّسالة، لقد أحكم إغلاق الأبواب على عودة الحبّ بينهما بعد هذا الكلام الجارح الّذي وجّهه إليها، وكأنّه يريد الانتقام منها، وعزاؤه الوحيد كان عبر إطلاق مجموعة أحكام ربما بعضها صحيح وبعضها الآخر لا يمت إلى الصّحة بصلة. لقد أراد أن يردّ صفعتها بطريقته الخاصة، هو يحبّها تدرك ذلك، ولكنّه موجوع، فقد كان حبّها بمثابة الضّوء المشع في حياته الرّوتينية، والآن عاد إلى عهده السّابق مع امرأته، قرّبتها الحياة منه ولكنها سجنته بين قيودها، وكبّلته بحبّ غريب، أفقده الرّغبة به، لذا أراد التّحرر منها لأكون أنا المرأة البديلة، المرأة العاشقة، ولن أكون سوى ذلك.



لقد أحببنا بعضنا في لحظة خاطئة مع الزّمن، وتبادلنا الجنون الملقّب بالحبّ، كان لقاؤنا مصادفةً، ركبناها وتجوّلنا على حصانها وجُلنا في بقاع العشق كاملة. وكنّا أجمل حبيبَيْن، تسللنا ليلًا من خلال شاشات الحاسوب إلى عوالم غرامية لا تليق إلا بنا، نحن عرفنا كيف نمارس حبّنا علنًا وسرًّا، وكنا لصّيْن عرفا أساليب الهروب متى أرادا. كنت أتمنى لو يكون لي فقط، شعاره فرحتي، ولواؤه بسمتي، وأن تكون الخيانة أبعد ما يمكن من قلبه، ولكنّه خانني، وخان الذّاكرة، وخان الحبّ. فأضعته ذات يوم، بحماقة كلاميّة ومشادة عنيفة أخرجت منها غضبي في نهار أشرقت فيه شمس الحقيقة. وها أنا اليوم أخطأت الحساب مرة أخرى، وعدتُ إلى وحدتي بجسد امرأة وروح مراهقة وقلب طفلة، تبكي دمية فقدتها على رصيف الحياة، وصرتُ أُشبهُ قصاصة ورقة منسية.

أشعلت سيجارة لأوّل مرة في حياتي، علّي أنسى همومي؛ ألا يقول الجميع، إن السّيجارة تزيل الهم، ولكنّها لم تزل شيئًا، سيجارة ثانية وثالثة والرّابعة آتية والهم في تصاعد وتزايد، ومحاولة ترتيب أوجاعي

لم تنتهِ، وجنوني يسيل فوق ورقة بيضاء آثرت التّمسك بها، علّي أصبّ بعض غضبي عليها... محاولة عبثية أخرى، فالورقة ما زالت بيضاء بين يدي وعلب السّجائر تحيط بطاولتي بشكل غريب، وأكواب النّيسكافيه الفارغة، كلّها إشارات إلى أنني فقدت الوعي بالحياة ولم أعدْ على ما يرام قطّ.... عبثًا أحاول العودة إلى رشدي، ولكن....

ساعات وساعات مرّت، والحال على ما هو عليه، وروحي تشبه الفرس البرية الّتي لم تصل إلى فريسة أخرى لتتناولها وجبة شهية. والكتابة أفضل حل، ولكن الأبجدية في انقطاع رسمي معي، لا حرف، لا كلمة، لا هواية عرفت طريقها إليّ... وحده جنون أسود يلفّني ويحيط بي، يدخلني كهفًا مظلمًا هائجًا باللّوعة.

تنساب ألحان أغنية جميلة وقديمة إلى أذني، أغنية لطالما أحببت سماعها عندما كنت مراهقة، ولم يكن وقتها الآن، فقلبي موجوع ومهموم وكلمات الأغنية تشعل ذاتي مثلما نشعل الجمر في موقد شتوي، والآهات تتصاعد مع كلمات الأغنية لتصرخ روحي معها مردّدة صدى ما تسمعه:

«أحتاجك بعمري مثل الهوى بصدري، تجرحني وأنا أشكرك وأتذكرك....

يا مطول الغيبة أشتاقلك بالذّات... ولما تأسى أعذرك أعذرك أنا أعذرك....».

أرعبتني تلك الكلمات، وأدخلتني حالة من الكآبة، وكان لا بدّ

من قوة إلهية تبدّل كياني أو تغيّرني من الدّاخل. فكلّ خطوة تقودني إلى الأصعب، وصرت أتمنى الموت الشّهي، ولم أعدْ أدري بعد أن كنتَ سبب ولادتي أنك صرتَ سبب نهايتي أيضًا بقنبلتك الموقوتة الّتي فجّرت كل ما بيننا.

أشعر بهشاشتي، لأنّ جنون الحب القديم، والسّعادة الّتي وضعها بين كفّي، كلّ شيء غاب في لحظة من دون أن أحضّر نفسي لوداع أو لمأتمٍ يليق بنهايتنا غير المتوقعة. أتكون قصّتنا، شبيهة بالرّوايات، حين يعمد الكاتب إلى قتل الأبطال، أو تفريقهم أو تمزيقهم، فقط لأنّهم صاروا عبئًا عليه، وعلى الورقة، وصار لا بدّ من الانتهاء من أحد، أأكون أنا هي الأحد الّذي يجب التّخلص منه؟

كانت خطتك أن أحبّك، والتّحدي القائم منذ اللّقاء الأول أن أحبّك، وها أنا امرأة أحبّك، ولكن من دون جدوى.. فماذا حققت بهذا الحب... اللاشيء أم كلّ شيء....؟

ما زالت همسات كلمة أحبّكِ تسمع أعلى من أصوات المطر المنهمر بغزارة فوق نوافذ بيتي كصهيل حصان جامح، يثير في نفسي الرّغبة في احتضانك مجدّدًا. ولكن يبدو أنّ اللّيلة ستكون بمثابة استعراض عسكري لذكرياتنا معًا فقط... وعلى الرّغم من انهزامي لكن ذكرياتنا هي أجمل ما خطّته السّنوات فوق صفحات حياتي. اللّيلة سأصرخ أمام القدر قائلة:

«هذا هو الرّجل الّذي أحببته، وأحبّني، هذا هو الرّجل نفسه الّذي

دمّرني ودمّرته، إنّه مَنْ هزمني، فابكِ يا زمن عليّ بكاء أبديًّا لا تجفّ له دمعاتك...».

لقد علّقت وسام الهزيمة في أصعب استحقاق مارسته في حياتي، وتسلّمت درع الفراق من أعلى منصب في الدّنيا... ولن تفيدني دموعي وربّما حبري أيضًا....

نمت عند منتصف اللّيل، معانقة رسالته أو إهانته الجديدة، راسمة قلبًا محطّمًا فوق الورقة، الّتي صارت تشبه كلّ شيء إلا أن تكون ورقة موجّهة إلى الحبيب.

حلمت بك في تلك اللّيلة، كم مؤلمًا كان حلمي!

كلمة واحدة كتبتها صباحًا، وأرسلتها إلى هاتفه الخاص:

«أحبّك»...

لا رد، لا رنّة هاتف جديدة، ولا نقطة لأضعها أمام سطور حياتي.

كيف اقترفت جريمة أخرى بحقّ ذاتي؟ كيف تنازلت له بعد كلّ ما قام به؟ لِمَ يستمرّ في إطلاق رصاصاته في وجهي؟

كنتَ حياتي كلّها، واليوم صرتَ الحياة، ولكنني أنا من دون حياة....

سأعيش معكِ إلى الأبد، هكذا قلتَ لي يومًا، ومرّت الأعوام ليكون الأبد عندي هو نهاية حبّنا. فأيّ أبد قصدت؟

تلك الخيانة، لن أغفرها لك، حتّى بنات جنسي كلّهن لن يغفرن لك، وحدها زوجتك ستغفر لك، لأنّها مجنونة مثلي بكَ، لأنّها لن

تتركك تكون لي، لأنّها تحبّك حبًّا أعمى، وأنا لن أكون سوى عمياء من دونك. سأغرق في مياهك الآسنة ومستنقعك الرّاكد، سأغرق في حبّك، وستغرق في حبّها.

كنتَ تكتب لي كل ليلة، كنتَ تغمرني بحنانكَ، كنتَ تُكثر من قصائدك الحلوة، وكنتَ تنام في حضنها...

ظلّت زوجتك، وبقيت حبيبة منسية فوق الورق....

وظلّ الزّمن يسخر مني، وغدًا يهمس فوق قبري: «هنا ترقد من خانها القدر، وخانها الحبيب ولكنها لم تخن أخلاقها».

ربّما يزورني أكثر من مليون عاشق وعاشقة، وربّما يعدّون قبري مكانًا خالدًا خاصًّا بالحبّ، وربّما ملايين المعجبين يضعون الورود الحمراء فوق بلاطات قبري، ويزيّنون اسمي بعبق البخور، وأنت حينذاك ستكون في قبر فارغ، وحيد، لأنّك كنتَ سبب موتي.

في ذلك اليوم الماطر، تسارعت دقّات قلبي، عشت هنيهات غريبة مع الزّمن، شعرت أنّ مستقبلي غير واضح، وقدري ربما يعبث كالعادة بأبطال حياته، أنا تلك البطلة الّتي كانت سعادتي تكمن في قراءة كتاب في مقهى يعجّ بالمثقّفين من الناس، بينما أحتسي كوب النّيسكافيه الكبير في جوّ عابقٍ بالدّفء الملائكي... تلك البطلة الّتي كانت مزاجية جدًّا معك، ففي يوم تشاركك فرحة عارمة، وفي آخر شهقة قاتلة، ولم تكن واهمة كعادتها، بل روّضت نفسها على أن تكون رحلتها الأخيرة أنت، كم تؤلمني تفاصيل حياتك الّتي أدركتها متأخرة... متأخرة جدًّا!

«نقطةٌ فارغةٌ قد تضعُ حدًّا لحياةٍ
تلوّنَتْ بالنّسيانِ...»

صوت رصاص يلعلع في المكان. سيارات الإسعاف تهرع إلى المكان. دموع تنهمر فوق وجه ضاحك. صراخ ونحيب وكلمات غير مفهومة مبعثرة تخرج من شفاه قاربت الموت. إنّها دقائق قبيل رحيلها عن الحياة، فقد قتلتها رصاصة طائشة من مجنون معجب بها، لتكون نهاية امرأة عاشقة على يد رجل عشقها من دون أن تعرف، فقتلها رجل غامض جسدًا بعد أن ماتت بسبب رجلها الأول روحًا، لتقع من يدها ورقة بيضاء كتبت عليها آخر كلماتها:

سيعرفونني حين أموتُ
أتيتُ حيّةً إلى رحلتي
وعدتُ جثةً هامدةً
لا حراك.
وشربوا نخبَ وداعي
بكاءً
وعلَتِ المآذنُ قبلَ تفتّتِ قلبي
تمدحُ القمر

عندما متُّ عرفوني
ومارسوا طقوسَ الذّكرياتِ
القديمةِ فوقَ رحيلي...
وأنشدوا أغنيةَ الوداعِ
وكتبوا على شاشاتي
أحبّتْ حتّى الاحتراقِ....

أمّا هو فقد كان منهمكًا في عمله، وبين مرضاه يستمع إلى أنين عليل، وشكوى مريض، ويسجّل ملاحظات روتينية على دفتره، وبينما هو كذلك وإذ باتصال هاتفي وصوت غريب لم يعهده من قبل. يقول له:

_ لقد ماتت مَنْ أسكنتْكَ قلبها ولم تستطعْ أن تُسكنَها حياتك. لقد رحلت اليوم بعد أن رحلت في الأمس روحها.

وقعت سماعة الهاتف من يده، وأصيب بصدمة كبيرة. دمعتان حارقتان زلزلتا وجهه الكئيب، وصرخة آه صعدت من داخله لكأنه أصيب بسهم في قلبه. وصل الخبر كالصّاعقة عليه. فأن تقضي سنوات من حياتك في علاقة حبّ، يعني أن تقدّم شيئًا من ذاتك، وتمنح الآخر وسام الأبدية. فهل أضاع وسام حبّه الآن، أم وسام عذاباته؟ من الصّعب أن يتقبّل ما سمعه، فقد شغلتْ جزءًا كبيرًا من حياته، ولأنّها كانت قصة حب حقيقية، فعل الخبر ما فعله في ذاته. فقد كانت مثل الوشم التصقت بقلبه ولا يمكن محوها...

خاطبها وكأنّها تقف أمامه، كلّمها وكأنّه يراها حقيقة، عبّر لها عن ضعفه، عن أسفه، وعن وجعه لغيابها. وقال:

خسارتكِ تعني أنّني سأعود رجلًا ضعيفًا، سأعانق الغياب، فهل أفتّش عن امرأة غيركِ؟ وهل يوجد بعدكِ نساء؟ لقد بحثت كثيرًا وكثيرًا قبل أن أجدكِ، كنت تريدين أن نعيش الحبّ الأبدي، وأن ينمو ويكبر، ويستمر إلى أبد الدّهر. كنت أتمنى أن لا أفشل معك، ليس معكِ أنتِ بالذّات، لأنّك كنت غير النّساء. طالما كان يلفت نظري بك، ويسحرني أنك تفاجئينني بكيانك القوي، وتحقيقك لذاتكِ بطريقة جميلة، وأنا مختلف عنك في هذا. فأنا أحتاج إلى الوقت كي أحقّق ما أحلم به، وقد كنت أجمل أحلامي، وصرت أصعبها تحقيقًا. معكِ حبيبتي تغيّرت أحلامي ورغباتي، وبعدك أعلن استسلامي الكبير. لا قدرة لي على الانفكاك عنك، ولا قدرة لي على البعاد.

أحبّك جدًّا، وأخاف من فقدك، والآن سأعايش نوعَيْن من الفقدان: فقدانك حبيبة وزوجة، وجودًا وحياة، كيانًا وإنسانة رقيقة حلمت بها دائمًا. فَلِمَ سرقك الموت مني؟ أردت أن أسكت بُعدكِ بغيابي عنك، أردت أن أؤدبك على تركك لي، ربّما تشعرين بالحنين، وربّما تدركين قسوتك، فكنتِ أقسى مني، تركتِني أتخبّط وحدي في دنيا مؤلمة. قولي إنّكِ تكذبين، إنّكِ لم ترحلي، أريدكِ إلى جانبي..... أرجوك....

سكت الصّوت، وعلا شهيق البكاء عاليًا.... كم يُميتني بعادك!

في كلّ علاقة هناك مشاكل وتجاذبات، ومشاكلنا لم تزعجني لأنني أدرك مدى طيبة قلبك، لم أكن مستعدًا قطّ لفقدانك، إطلاقاً، إطلاقاً..... ولا لهذا الفقدان المفاجئ... أرجوكِ عودي... عودي.... لقد أخطأت كثيرًا في حقّك، وأخطأت عندما جازفت بحبّك وخبّأت حقيقتي عنك، ولكنني أقسم لك إنّني لم أقامر بحبّك، كنتُ مؤمنًا أنكِ ملاك أرسل إلى حياتي، وأنّ القدر سيجمعنا يومًا ما... كنتُ مؤمنًا بك، فلم أراهن عليكِ، أرجوكِ صدّقيني وسامحيني...

كان يتكلم مع نفسه، كأنّها تجلس إلى جانبه، يتذكّر صورتها وضحكتها، فيبكي بكاءً حارقًا، ثم يمسك بالقلم الفضّي الّذي أهدته إيّاه ليكتب به أجمل خواطره الذّاتية، ذلك القلم الّذي أغرم به لأنّه منها، لم يعد يكتب بعد غيابها حرفًا، فماذا سيكتب؟ أسيكتب الغياب أم اللّوعة أم الحرقة؟

أخذت الذّكريات تتداعى أمامه، فتذكّر آخر لقاء له بها، وتذكّر آخر رسالة كتبتها بحرقة وأسى، قالت له فيها:

«كنتَ أكبر رهاناتي القاسية والمؤلمة مع الحياة، وكنتُ أصغر حماقاتِكَ الرّجولية ...».

لم تصدّقي يومذاك، أنّكِ كلّ حياتي، لم تصدّقي أنني لم أرد ما جرى معنا، وأنّكِ كنتِ كلّ شيء... كلّ شيء...

لم يشعر بنفسه في تلك اللحظة، ولا بصراخه الّذي تعالى في تلك الغرفة الصّغيرة الّتي جمعتهما، ليتعانقا العناق الأول والأخير.

مرّ أسبوع على غيابك، والكفن الأبيض يلوح في خيالي، وأحلامي كلّها صارت سوداء، تلفحها نسيمات باردة لأعانق مغيبك القسري. أبكي خيباتي المتكررة، وانكساراتي أمام الزّمن السّحيق. ليتك كنتِ معي، ليتكِ لم ترحلي، لأكتبك حقيقة فوق أوراق الدّهر.

لكلّ منّا حكاية مع القدر، حكاية مع الحلم... وحكاياتي معك كانت أجمل ما عشته... لقائي بك في المكتبة العامة، ذلك الحلم الّذي حلمت به منذ الصّغر، أن تكون شريكة حياتي مثقفة، متفهّمة لعملي، وأن ألتقي بك أثناء تصفّحي لكتب عديدة، ولكن ما جرى معنا كان أجمل، والتّبادل الخاطئ للكتب فتح لي المجال للدّخول إلى متسلسلات حياتك.

كنتُ أتمنى دائمًا أن أبعث إلبك برقية حضور إلى حفل ضخم، وأن أفاجئك أمام الحضور بإعلان زواجنا وحبّنا الكبير، ولكن الحفل الضّخم تحوّل إلى جنازة تليق بكِ... جنازة مشى وراءها كلّ مَنْ تتمنين وكلّ من لا تتمنين... ومن سوء حظي أنني كنت في الصّفوف الأخيرة، ولم أودّعك عن قرب. حتّى الموت كان بخيلًا معي، فلم يمنحني بطاقة الدّرجة الأولى حتّى أقترب منك للمرة الأخيرة.

حلمت أن أصفّق لك في كلّ نجاح تحقّقينه، وها أنت أهديتِني وداعًا يصفعني، ليغيّبني عن الحياة. فماذا سأحقّق بعدك؟

أنا الرّجل الّذي صار لا يمتلك شيئًا بعدك، بعدما كنت أملك كلّ شيء....

لا أفهم كيف تركتِني، ورحلتِ من دون سابق إنـذار، كيف استعمرني حبّك، وغرست مخالب جنونك في داخلي قبل رحيلك، كيف أهديتِني الوداع مرّتين: مرة لحظة معرفتك الحقيقة، وأخرى عندما أخذك الموت عن قصد أو من دون قصد لم أعد أعرف. وها أنا سأموت وحيدًا برفقة امرأة أخرى، شاركتِني كلّ شيء إلا أنتِ.

مرّ شهر، كنت أمارس عادتي بزيارة قبرك، لأترك عليه بطاقة بيضاء ووردة زنبق كنتِ تحلمين بأن أهديك إيّاها يوم زواجنا، وها أنا أهديكِ إيّاها يوم تزوجت الموت ورحلت معه إلى عالم آخر. لن أعدّ موتك خيانة لي، بل هو أشدّ عقاب قمت به بحقّي.

وصلت إلى المنزل يومها متعبًا، مرهقًا كأنّ هموم العالم كلّها تنصبّ فوق جسدي. أدرك أنّه من الصّعب عليّ أن أتقبّل ما جرى، ولكن...

أخذت قرارًا بأن أفتح بريدي الإلكتروني، وكنت متأكّدًا أنني سأحبط، لأنّ رسائلك لن تصل بعد الآن، وكم كانت مفاجأتي كبيرة، بل لقد صُعقتُ عندما رأيت مجموعة رسائل مرسلة منك، وخصوصًا أنّ وقت إرسالها هو وقت غيابك، فكيف جرى هذا؟

فتحت الرّسائل لأكتشف أنّها مجموعتنا الأولى الّتي كنّا قد أرسلناها إلى بعضنا بعضًا، لقد قمت يومها بخدعة تقنية من خلال الاشتراك بموقع «في المستقبل»، وهو موقع يعيد إرسال الرّسائل القديمة مرّة أخرى في التّاريخ نفسه ولكن في عام مختلف...

عشت وقتها لحظات الماضي بشعور المرارة والخيبة؛ لقد أفسدني غيابك وجعلني لا أقوى على التّعبير ولا الكتابة، حبري جفّ، رجل مثلي لا يملك القدرة على التّحكم بمشاعر الحنين، فكيف تريدين منّي أن أتحكّم بغيابك الجسدي وحضور أحرفك مجدّدًا؟

وبدأت أفتح تلك الرّسائل كي أعيش الماضي في الحاضر. فالأيّام إن كانت قد فرّقتنا، ستبقى الكلمة تجمعنا... وأخذت أشعر بمدى وحدتي، فأمسكت بقايا سيجارة منطفئة... وصرتُ أتلاعب برمادها في غيابك، كم كنت تحبّين هذه اللّعبة، وكم كنت أضحك عليك عندما تقدمين على اللّعب بها. كنت أقول لك:

«كم أنت طفلة رائعة يا حبيبتي»!

واليوم، رحلت طفلتي، وانتهت اللّعبة، وبقايا السّيجارة مشتاقة إلى لمساتك النّاعمة، وقهوتي مرّة كمرّ طعم غيابك، أرتشفها مع قراءتي لرسائل الأمس، عندما كانت العناوين تحمل شوق الكلمة والحنين إلى اللّقاء، وما بين الكلمة الأولى والأخيرة أعيش في دوامة صعبة، تصاحبني منذ أن أبدأ القراءة، فكيف سأرتوي من كلماتك؟ ومتى يأتي يومي الموعود كي أنعم بفجرك....؟

ما زلت ساهرًا، مللت الانتظار الصّعب المنال، مللت احتراق قلبي العاري من دونك، وشوقي الحارق، ما الّذي كان سيحدث لو بقيتِ حبيبتي؟ لو بقيتِ إلى جانبي؟ لو بقيتِ.... لو بقيتِ...تِ....تِ.

كان صدى تلك الكلمة يتردّد في أنحاء الغرفة المظلمة، وشريط حياتك معي كنت أراه أمامي، كأنّني أجلس أمام فيلمٍ سينمائيّ خيالي، كأنّ رحيلك كذبة أخرى لا يمكن تصديقها.

فهل رحلتِ حقًّا؟ سؤال برهن القدر، الإجابة عنه صعبة، فشلت في التّوصل إليها، فاعذريني يا حبيبتي لأنّني أضعتكِ في لحظة خاطئة تاريخيًّا، وصرت أتمرّن على اعتياد فكرة موتك، وأقدّم أوراق اللّجوء السّياسي إلى وطن النّسيان.

أنا الآن أعرف كيف فرّطت فيكِ، ولكن الذّنب ليس ذنبي، أنتِ جئتِ إليّ متأخرة عن الفتيات اللّواتي عرّفتهن. لقد عاقبتك الحياة، فلم تسهّل لقاءنا، وكان عقابك أكبر، إذ طرتِ بعيدًا من دون استئذان. ولم أعد أسمع حفيف أجنحة ملائكتك الّتي تحيط بي، فقط أشعر بسعادتكِ، ربّما لأنّ صوتك ووجهك ونبض قلبك ما زال مثل كوة الشّمس، أفتحها كي أثلج قلبي بكِ. أنتِ الّتي تؤمنين بالعلاقات الخالدة، هنيئًا لك، لقد خلّدت حكايتنا، وأتقنت حفظها بالدّمع والكتمان؛ فالرّسائل القديمة تلك ستعود من خلال ذلك الموقع وسأجعلها مذكرات علنيّة، لن أخاف من نشرها، ولن أحنّطها مثل المومياء في حاسوبي، سأجعلها رسائل العاشقين والعاشقات، لتكون آثارًا خالدة خلود الزّمن، علّي أرد شيئًا مما منحته لي، علّي أسطّر فوق أوراق عتيقة جزءًا مما تستحقينه.

لقد كنتِ تستحقين حبّي، ولم أمنحه كفاية لك، وكان تاج

حماقتي أنّني فرّطت بك، وجعلت تصرفاتي مثل الخنجر أغمدته في قلبك، فقتلتكِ في الحياة قبل أن تقتلك الحياة. وها أنا أتشرّب جرحي وحيدًا، بينما زوجتي في الغرفة الأخرى تتضاحك مع رفيقتها على الهاتف حول موضوع لا أفهم صدى كلماته المنبعث. يزعجني أنّها تضحك، في حين أشعر بألم يحرّضني على الجنون. ليت الحياة تخلع مآسيها وتخلّصنا من أكواب الحزن الّتي نرتشفها دائمًا، ليتني أتحوّل إلى ضفدع في قصة أسطورية، فألتقي بجنّية ساحرة تُعيدك إلى الحياة، وأبقى ضفدعك المفضّل. لا أريد أن أكون أميرًا، لا عرّافًا، ولا حبيبًا... أريد أن أكون شيئًا صغيرًا أمام عظمة قلبك. لكن اللّعنة أصابتني وأصابتك، فرحلتِ باكرًا، ورحل قلبي معكِ. وتركتني أكتب هذياني بقية الحياة على أسطر الوجود. وأعيش رغمًا عني معها، ورغمًا عن إرادتك مع بقايا قصتنا المزروعة خلف شاشة صغيرة، تستحضر تفاصيل حكايتنا كلّها، لأرافق دائمًا مذكراتنا، وأتحسس الكلمات كمن يلامس شيئًا من نفسه، أخاف على شاشتي من الاندثار. لذا، سأطبع كلماتك كلّها، فالأمر صار يتعلّق بأشواقي وأحزاني الّتي كتبتها.

أقرأ كلماتك كأنني أقرأها للمرّة الأولى، كيف سأتحمّل ذلك الحزن الّذي صار فيضًا، يقودني نحو المجهول؟ كيف سأراقب تلك الصّورة الصّغيرة وهي تتدلّى خلف الشّاشة؟ لقد باغتني القدر، ولم يمنحني الوقت الكافي لأتمّم ما بدأته معك، في حياة اشتهيتكِ فيها.

لم يبقَ لي أحد. كلّ ما جرى لا ذنب ليْ فيه، ولا ذنب لك، هو القدر يا حبيبتي قد جمعنا وفرّقنا، قرّبنا وأبعدنا، فكنّا ضحية الفراق.

أمسكت صورتك بخفّة كأنني أمسك بملاك طائر من أحضاني. صرت أرمقها، قبّلتها مثل الّذي يقبّل الكتاب المقدّس، ثم ضممتها إلى قلبي، وأدركت فجيعة خسارتي.

فهل خسرتُكِ حقًّا؟!!

تمّت

«شكرًا لقطراتِ عشقكِ، فقد كان
فيها الكثير منكَ والقليل منّي...»

رحلتْ نيروز باكرًا وتركتْ مذكراتها وبقايا تفاصيل حكايا، فما كان من خالد إلى أن أخذ قرار طبع تلك الرّسائل على أوراق حملت كلّ ما في كيانه من وفاء لها، ومن محنة عاشها ذلك العاشق، الّذي لم ينسَ يومًا أنّه جرح حبيبته؛ فجرحته الحياة. خدعها؛ فخدعته بالغياب القسري. وبصمتٍ مطلق عانقه ولم يقاوم ذلك العبء.

مرّت الأعوام بسرعة غريبة، ليأكل الصّدأ بعض الذّكريات، وتلهو بنا الحياة، فنعيش كما تشاءُ لا كما نشاءُ. نترك الدّنيا لأحفادنا وأبناء الحياة يعبثون كما يريدون بها. ونضع بعض مفاتيح الذّاكرة بيد أغلى الأحفاد:

حفيدتي المدللة نور، تركت لها مفاتيح أدراجي كلّها لتكتشف بمفردها ما فعلته الحياة بي.

وجدت نور تلك الأوراق في درج جدّها خالد الحبيب، الطّبيب المثالي بنظرها، والإنسان الحكيم كما عهدته دائمًا، والعاشق الخاسر في الحياة. أمسكتها وقرأتها بتمعّن ولهفة كمن يقرأ سيرة حياةِ بطل من الأبطال، أو أحدٍ من المشاهير. لقد كانت الأوراق صفراء تدلّ على قدمها، وكأنّها كتبت منذ زمن بعيد، وبفعل الوقت والنّسيان والأيّام أصابها نوع من القدم أيضًا، فتلاشت بضع كلمات، حاولت

قدر المستطاع معرفتها واستنتاجها، وتآكل بعضها الآخر، لكن معالم الحكاية واضحة، وتفاصيلها لا تخفى على أحد.

الرّسائل المتبادلة بين جدّي خالد وحبيبته نيروز، كانت شيئًا من ذلك السّر العظيم المدفون في عينيْه. لطالما تساءلت عن سرّ دمعته الّتي حبسها دائمًا، عن كلمة الآه الّتي تتصاعد من قلبه، ويصعب عليّ تحملها. كان حملًا ثقيلًا في قلبه، لم يستطع نسيانه، ولم أستطع التّغلب على قراءته.

قرأت تلك الأوراق مرارًا وتكرارًا، حتّى حفظتها عن ظهر قلب بل عن ظهر ذاكرة. كم مؤلمًا أن تحبّ وتعشق في زمن الغفلة! في زمن الموت الفجائي! في زمن خلّد قصة حبيبيْن شَقَيَا من الفراق الأبدي.

كم احتاج جدّي إلى وقت كي يتدرّب على النّسيان! بعد هذه السّنوات كلّها، قرّر أن يهديني تلك المفاتيح الّتي بها فتحت أبواب ماضيه، فقال لي:

«لقد وضعت بين يديك حفيدتي، سنواتي المقلقة، والقدر المتواطئ ضدي، وزمني الموحش الّذي قضيته أدفع ثمن خطأ لم أشأ ارتكابه. لقد امتطيت موجة قوية، رمتني على شاطئ العزلة والخوف وربّما الموت الحياتي. أسمعتِ بالموت الحياتي يا نور؟

لقد عشت وحيدًا، وسأرحل وحيدًا، وعليكِ أن تحافظي على ذلك الإرث العظيم. لقد تعبتُ كثيرًا، فلقد ماتت ولم تسامحني. تركتها تموت ولم أخبرها بأنني متُّ عشقًا بها.

تركتها تموتُ ولم.....

تركتها تموتُ.....

تركتها....

ها أنذا اليوم، وحيدة من دون جدّي، أسلك كلمات أوراقه الأكثر حزنًا وألمًا، وكما وعدته وبعد مرور خمس سنوات على وفاته، ما زلت أعود إليها كلّ حين وأتفقّدها، فقد أدركت أنّ قصتهما لم تكن قطّ ككلّ قصص العشّاق.

آه، كيف يأتي هذا الوجع دفعة واحدة، ويعيش جدي مصادفات الحياة المؤلمة بقوة؟

آه، انطفأت نيروز، بعدما أعطت الحبّ الكبير لجدّي. ولكن القدر لم يمنحها الوقت الكافي لتخرج ما في عمقها من عشقٍ وهيامٍ قبل أن تصير مثل السّراب، نعانق أطياف روحها في حيّ صغير عانق جسدها، في مقبرة أعتقدُ جازمةً أنّها من أكثر المقابر زيارة.

تلك الانكسارات الهائلة الّتي عاشها جدّي، والشّظايا الطّويلة الأمد الّتي أصابت كيانه وذاكرته، هي الّتي دوّنت، فامتلأت بتفاصيل الحكايا ولم أستطعْ مقاومة شهوة الحروف، وخفت أن أفقدها فنشرتُها، لكي لا يسرق الموت مرّة أخرى تفاصيلكما. ومن يدري ربّما تكون المرة الأخيرة الّتي أقرأ تلك الأوراق، وأهتف بتلك الحكايا صارخة:

«هكذا عاشَ جدّي، هكذا ماتَ... هكذا قُضِيَ على الأشياءِ الجميلةِ....».

الرّسالة الأولى...

ذاتَ مساء كئيب، يبكي عناوين ليل صاخب مميت، شعرتُ بأنّ ثمّة عواء وراء التّلال ونخلة بائسة تهدّها الرّيح، تعرّي سعفاتها ليزحف إليها الرّمل مرغمًا. يدنو العواء؛ فتسقط آخر سعفة بين أقدام الذّئب، ويرخي اللّيل سدوله، بيْد أن النّجوم بدأت تغادر المكان، وتتركه لانبلاج صباح جديد. هكذا، كانت حياتي البائسة بين نخيل شارد وعواء مؤلم وكيان ميّت وبطلة قوية تقف في وجه الإعصار.

ثمّة طارق جديد يلوي عنان اللّيل، يغيّر كياني، لكن التّقاليد تمنع وتمضي ...... لتثمر معي حكاية تليق بنا أيّها الطّارق اللّطيف.

كانت لقاءاتنا تبدأ بنظرة اللّهفة وتنتهي بحزن شديد لأنّ الوقت انتهى. وأعود إلى البيت، إلى اللّيل الكئيب، وأنسى اليوم وأتابع عملي ويومياتي من دون عذاب أو حتّى ذكرى. كلّ ما أفكّر به أنّ يومي كان جميلًا، وفنجاني المميز «نسكافيه» كان طعمه مغايرًا للعادة.

وذات مساء آخر، كتبت على آفاقك ساعة غروب.. كتبت رسالة عاصفة بالحبّ والشّجن، كتبت أحبّك كي تتمدّد غيمة على الحدّ الفاصل بين السّماء وأمواج العقل والجنون، وقررت أن أقف أمامك، وألقي بكلمتي كالأزهار تحت قداسة كلماتك، وأخرج من صندوق القلب جوهرة علّك ترتديها كحجاب لك، وتكون لك وحدك تدوخ على إيقاعاتها. الأيّام ستعرّفك بي أكثر، وسيعرف المغيب بأنه أصبح شيئًا غير قابل للتكرار معكَ. سيكون الشّروق هو من سيلقي بالتّحية

الصّباحية كلّ صباح عليك، وستدهشك نغمة صوتي وهي تداعب صباحاتك لتستيقظ على صليل أشعة الشّمس، عندها ألامس صوتك، الّذي سيحوّل حياتي إلى ألوان برّاقة مدهشة.

حبيبي، أدهشني بوجودك كي أفتح عينيّ على غدٍ لا يعرف للأمس طريقًا، ولا للحزن شجيرة كنت أبكي تحت أغصانها. واجعل الشّوق مرتقبًا ليتكسّر صوتك على أمواج اللّقاء، وينثر لؤلؤ الكلمات على امتداد البسمة. أدهشني بهذا الوجه الّذي تؤم مراسيه سفن الأحلام وبهاتين العينيْن اللّتيْن منهما تتكوّن أمواج الأمل وإليهما تعود حكاية سعادتي... كنْ لي رفيقَ حياةٍ ولغة؛ أكن لك الحياة....

الرّد...

تعمّدت أن أستيقظ هذا الصّباح باكرًا عند السّاعة السّادسة من أجل سبب وحيد بقيت أفكر فيه طوال اللّيل، وأنا نائم بقربك. ألا وهو أن أرى نور وجهك النّقي صباحًا مع ابتسامتك البريئة النّاعمة، وأنت تضعين خدّكِ على الوسادة الّتي يضاهيها طراوة، ولكي أحضّر لك بنفسي فنجان النّسكافيه مع حبة شوكولا تلتقطينها بشفتيك الرّقيقتين وزنبقة بيضاء تخجل حياء عندما تنظرين إليها. وكنت أدرك أن هذا الأمر مجرد حلم صعب التّحقيق، ثمّ توجّهت نحو حاسوبي يسبقني قلبي المتلهّف إلى قراءة كلّ حرف من حروفك بشغف القراءة المعتادة... وها أنا أنحني اجلالًا لكلّ حرف تلفّظتِ به، وأنحني إجلالًا لقدرتي

في أن ألهمك عن بُعْدٍ. لقد حملت كلماتك أجمل معاني الحب، فهي من أجمل الرّسائل لما فيها من صدقٍ لا محدود، ومن حبّ كبير وعشق أكبر وجنون رائع...

الرّسالة الثّانية...

في الصّباح الباكر، فتحت عينيّ على حلم جديد، واقعي ... إنني مرهقة من تعب الحياة، ومتعبة من سننها القديمة، وعاداتها المتعجرفة: ولكنّك هذا الصّباح أنت أمامي، هذه الصّورة الرّائعة الّتي تذكّرني بأشياء كثيرة ... عيناك ولغتك النّابضة بلغتي، الّتي تعمل في داخلي، وتقلّب ذاكرتي حتّى يبدأ الألم في التّراجع، فأعيش سعادة اختفاء الألم الّتي لا نظير لها.

أفتقدك، وأفتقد بعض جلسات جميلة كنت فيها ملكًا بسطوة نظراتك، وبسمة أملك.

أفتقدك إلى حدّ الجنون، إلى حدّ أن أنظر إلى صورتك، الّتي وضعتها وأنا أحبس نفسي خوفًا من البكاء.

إنّ دمعتي الصّباحية قد خفّت تدريجًا، والسّعادة الّتي أفقدها بسبب بعدك منّي ربما سيحين وقت رحيلها يومًا، لقد بقيت كلماتك البارحة، تتشبّث بي، مثلما أتشبّثُ بصباح جميل معكَ، لأسافر بها إليك كما يفعل أي عاشق صغير قادم من الرّيف لأوّل مرة، ومتلهف إلى عناق المدينة.

لم أكن سابقًا أؤمن بالحبّ ولكنك بدّلت كياني، وأوجدت

لعالمي قصة جديدة، فأنا أنثى لا تتكرر في حبّك، كاللّصة السّارقة لشعلة الحب من قلبك. وأنا أدخل وأخرج إلى أوردتك من دون أن أترك أثرًا واحدًا لجريمة الحبّ... ولكن تيقّن أنني مستعدة للسجن في قلبك وأن يقبض عليّ بالجرم المشهود فقط كي أكون معكَ . كم رغبت لو أكون مساعدتك الشّخصية في كلّ شيء، أهوّن عليك تعب العمل والرّكض المستمر في الحياة، فأركض عنك وأضيع بك. بالفعل جعلتني مجنونة بك... سيأتي يوم اللّقاء المنشود لأدنو من حبّك أكثر، وأضيع بين شهد قلبك وعسل شفتيك ورغبة قاسية في أن أكون معك دائمًا.... كي أذوق الحب الحقيقي مرة في حياتي...

سأكتب لك أطول وأكثر...

سأسافر دائمًا معك في أحلامك.

الرّد....

صباح مشرق بزهور فواحة تملأ أرجاء غرفتك برائحة ذكية، وصباح وردة متفتحة تقبّل مسامات النّدى المبعثر فوقك.... يا صاحبة الابتسامة الجميلة الوضّاءة، الّتي غمرتِني بها صبحًا بإشراقة روحية أذابت حزن عامي ويأس آلامي، وجدّدت لي أحلامًا ضائعة......

في بُعدك لم يعد لي جسد يقوى على العيش، ومعكِ صار جسدي وروحي يحلّقان فوق مدى الفجر وأقواس قزح ورديّة اللّون..... حبيبتي لا تظنين يومًا أن ذلك الكلام أكتبه طمعًا بكذبة... أو رغبة بتمضية وقت... إنه كلام الرّوح للرّوح... والقلب للقلب...

والآه للآه..... وإن كان الزّمان والمكان يسيران كضدّيْن، وتعارفنا المفاجئ كان نقيض واقعك.... وحرّيتنا مكبّلة ومقيّدة.... فإنّ ذلك الحب قد ولد ليعيش ويحيا فوق أوراق الزّمان وأحلام الحياة المتطلعة إلى الغد..... لقد ذابت أحلامي فترة، وضعف جسمي، وتحطّمت آمالي.... وفي غمضة عينٍ كان ما لم يكن في الحسبان، علاقة جميلة، ثمّ حب حمل أمل روحك وإيمان قلبك ..... قد كنت أجري خلف هدف كجريان العطشان وراء السّراب، والآن قلبك هو الخلاص، لأنّه نسمة في زمن العواصف.... نور في عصور الجهل... وردة غير شائكة وعابقة بعطرك الفواح.... فيا شهرزاد حياتي، قد كنت تقتلين كلّ يوم إحساسك واليوم أعلنك زوجة لي.... شرعية أو غير شرعية... حقيقية أو وهمية ... لفترة جارحة أو غير جارحة... إنّك رغمًا عن أنوف الجميع حبيبتي وزوجتي، كم عشقت هذه الجملة لأنّها رفعتني معكِ إلى مكانة عالية!

إنني أتألم صباحًا، فأنت بعيدة وأنا لا أقوى على ذلك.

رفقًا بنفسكِ حبيبتي وبي، إنّني أذوب عشقًا...

الرّسالة الثّالثة...

تستحقّ قصتنا أن تخلّد، وأن تكتب، وسأحتقر نفسي لو حاولت ذات يوم أن لا أفعل ذلك. إنّ حضورك في حياتي كالإعصار الّذي لا يتوقّف، كالبركان يشعل ذاتي، كالمطر يبلّل أوراقي، كالنّار يجمّلني، كالأرض المحروثة الّتي أعبدها إلى حدّ الجنون.

خالد، إنني فخورة بك إلى حد لمت نفسي ذات ليلة لأنّها لم تجمعني بك، وكنت أعرف في أعماقي أنّك تستحق الحضور في حياتي أكثر من الغياب. ولكن السّؤال الآن أأستطيع الاحتفاظ بك إلى الأبد؟

إنّ هذا فقط ما يعذّبني... فغيابك هو ذلك الشّعور الكئيب الّذي لم يغادرني، مثل ذبابة أطبقت على صدري.

الشّروق معك يذهلني، على الرّغم من السّتارة الّتي تحوّله إلى غريب عني، وتذكّرني بألوف الحواجز الّتي تجعل من المستقبل - أمامي - مجرد حلم مستحيل... ولكنني أشعر بصفاء لا مثيل له، فأنا أريد أن أبقى معك، بكل بساطة لأنّي أحبّك. وأحبّك كثيرًا وسيُدَمَّرُ الكثير مني إن فقدتك، وأنا أعرف أنّ غبار الأيام سيترسب على الجرح، ولكنني أعرف بالمقدار نفسه أنّه سيكون مثل جروح جسدي: تلتهب كلّما هبّت عليها نسائم الوجع.

أنا لا أريدُ منك شيئًا، أريدُ فقط انتصارًا واحدًا على الحياة.

أنا لا أريدُ منك شيئًا، ولا أريد- بالمقدار نفسه- أبدًا أن أفقدك.

إن المسافة الّتي تبعدنا لن تحجبك عني، لقد بنينا أشياء كثيرة معًا لا يمكن بعد، أن تغيّبها المسافات، ولا أن تهدّمها القطيعة لأنّها بنيت على أساس من الصّدق لا يتطرق إليه التّغيير.

ابقَ هنا، فأنتَ أنا... ولكنني هذه المرة لن أمضي وحيدة، وسأظلّ أنزف كلما هبّت الرّيح ولم تكن معي...

الرّد

تكتبين ما أريد أن أقوله، تقولين ما أريد أن أكتبه، ويبدو أننا روح واحدة بجسديْن، ولن يفرقهما القدر. سأتكلم لغتك وأكون أنتِ. وسيؤكّد لك الزّمان كم أنا قريب منك. وربما خلقت لأكون لك. لن أكون مستحيلًا، أقله بوجودي في حياتك. سأعطيك شعورًا لم ترتعش له مسامات جسدك من قبل. سأكون أنت.

ستجسّدينني دائمًا...

أعدك باسم حبّنا الّذي خلقه القدر، وباسم عشقنا الّذي بني على أكتاف الحياة بأنني سأكون قربك وأحيا معك ما بقيت. والله لنا الموفق

كم أحبّ اسمك نيروز لما يحمله من معانٍ جميلة!

الرّسالة الرّابعة...

مع قرب حلول القمر، بدأ النّعاس يرتّب قلبي، لأنام في حضن أحلامك الملائكية، وأرنّم أغنية تضيّعني معك بأحلام ناعمة، إلى أن أصحو ومعي كوب قهوتي المزخرف، وقلبك قد جعل من صباحي صباحًا ورديًا...

المساء اليوم شاحب كابتسامة ضيّعتها عن قصد، وغيابك طويل، والدّرب أطول، وأنا وحيدة كنجمة شاردة في عالمك اللّيلكي، أداعب سماءك، وأزهر نجومًا عالقة في البعيد البعيد...

ها أنا ألتحف بالصّمت، وحولي ضجيج وأنين، ولكني لا أسمع شيئًا سوى صوت صداك، وصدى الرّيح الّذي ينقله إليّ، ويجعلني

أشتعل شوقًا واشتياقًا إليك، بدأت أفتّش عن كلماتٍ تليق بك، كلمات جسّدتها أمنياتي، ووضعتها أناملي فوق صفحات رسمتها بمداد الرّوح.... روح صافية كصفائك.

وهكذا أنت، صافٍ قلبك يا حبيبي، تأتيني في السّاعات كلّها، مع النّسيان، مع الذّاكرة، مع الذّكرى، وتتحرّش بي كي لا أوقف حنيني، فلك أقول: لن أتوقف عن الحنين، وسأداعب الشّوق والأنين كي أكون بك ومعك وحاضنة قلبك... واسمي يظلّل اسمك....

هذا هو قدري .... سأخطّه مرتين معك، مرّة بوجع ومرّة بفرح، وهيهات ما بينهما!!!!!!

الرّد

استيقظت صباحًا على سريري الأبيض مع إشراقة شمس جميلة تطلّ من نافذتي لا توازي إطلالتك البرّاقة، ولا تضاهي حرارتك الدّافئة. تلفتّ إلى يميني وإلى يساري فلم أرك، ذهبت إلى الغرف الأخرى فلم أجدك، ناديت باسمك بأعلى صوتي: حبيبتي، أين أنت؟ فلم تردّي. عدت وجلست وحيدًا على سريري، وأدركت أنّك لست أنت من تعيشين معي، وإنّما كلماتك حاضرة في غيابك عني.

اليوم أنا لا أقوى على الكتابة، ولا على التّفكير. أفكاري مشتتة وحروفي متقطعة. لا أقوى على التّركيز. لا أعلم أين أبدأ. هل يجب أن أتذكر كلمات ومشاعر جميلة عشناها معًا؟ هل أرسم مستقبلًا يجمعنا

سويًّا قد يكون أو لا يكون؟ هل أعود إلى وطني فأراك أكثر بعدًا من المكان الّذي أنا فيه الآن؟ لقد عشت معك أيامًا شعرت بوجودك قربي أكثر من أيّ أحد على هذا الكوكب. حذفت أشخاصًا من حياتك ووضعت نفسي مكانهم. لبرهة جارحة اعتقدت أنني سألتقيك فور عودتي ونكون معًا. لقد جمعتنا علاقة إلهية، قدّر لنا أن تكون في هذا التّوقيت وذلك الزّمان. الزّمان الّذي أبى إلا أن يطير بنا على جناحيه إلى ما فوق الأعالي، مكبّلًا يدينا بأكاليل الحبّ والفرح، وعاصبًا أعيننا عن الحزن، وراميًا بنا إلى كوكب لا يوجد فيه إلا نحن. نبنيه كما نحلم، ونحضر إليه من نحب، ونخلق فيه ما نبدع. هذا الكوكب ليس فيه قوانين ولا تقاليد ولا أديان. نغرّد فيه عشقًا وأملًا وحبًّا. ونعلّم كل من لا يعلم كيف يكون الحب وكيف تستمرّ العلاقات، وبماذا تنبض الحياة. لا أريد التفكير كثيرًا، كلّ ما أرغب به الآن هو تدليك قدميك الطّاهرتين بيدي، وزرع ابتسامة على شفتيك تسقي بريقها بساتين من الورود والأشجار، لأجعلك أسعد امرأة في العالم.

الرّسالة الخامسة...

ذهبت إلى العشاء، وتركتني وحيدة، أداعب صمت المكان، ووحشة المغيب، وأيقظتني الحقيقة المرّة عن كلماتك الجميلة، عندما قررت الذّهاب إلى عشائكَ وتركي وحيدةً في هذا المساء الأليم. كيف

تسير السّاعات معك بسرعةٍ ولا أشعر بالوقت؟ ليأتي وقت رحيلك، فأطلق السّكون إلى عالمي كأصفادٍ قيّدتني، وأخرس نبض سعادتي، وأرحلُ إلى وسادتي كي أتخيلكَ إلى جانبي وأنام مرتاحة، المسافات كلّها حبيبي تتداعى حين أستحضرك إلى ذاكرتي وقلمي معًا... ليغدو المدى واسعًا بحضورك.

هل عرفت يومًا الحبّ الحقيقي؟ ذلك هو الحب الّذي قتلته لسنوات وسنوات، وها أنا أحياه مجددًا معك، وأعلن نفسي حبيبة عالقة مع أطراف عشقك بين السّماء والأرض.... بين السّحاب وثريّات الكون المتلألئة الّتي تداعب وجودي...

فيا أنت الّذي صار أنا...

حنانك هذا المساء يخترق ضلوعي، ويشاكسني لأصير مجنونة مثلك، مراهقة في أفكاري. حنانك يقتل آهات اللوعة، والأمنيات اليابسة كلّها لأنبت فوق شفاه الكلمات أروع اللآلىء العشقيّة بضوء طفيف أبعثه فيك، لتتوهج عيناك وتبرق لمعانًا فقد شعرت بوجودي معك في العشاء.... وعرفت أنني أرافق خطواتك الجميلة..... وأنك شمعة لن تذوب أبدًا في حياتي، متوهجة توهج القمر كلّ ليلة..... لن تفقدني أبدًا لأنّك رددت الحبّ ومشاعره الحقيقية إلى قلبي..... وقد وضعت فوق دربي حبّات قمح صغيرة شبيهة بذرات حروف اسمك كي يتبعثر المكان بك.... وأحلّق مع روحك إلى مرج بعيد مليء بسنابل العشق والود..... وألتقيك تحت مطر تشرين في حقول الله المترامية خلف لبنان....

الرّد

كم جميلة كلماتك حبيبتي! وكم تمنيت لو أنّه بإمكاني أن ألتقيك اليوم! ولكنك هذا الصّباح مشغولة. استيقظتِ وارتديتِ ثيابًا جميلة أضاءت جسدك وتعطّرت بأحلى العطور، الّتي عبقت في كلّ مكان، وذهبت بمفردكِ. ذهبتِ بعيدًا كي تعيشي إحدى تجاربك المميّزة الّتي تعطيك الأوكسيجين لتشعري بالحياة، وتجعلك امرأة لا تزال على قيد الحياة بكيانها ولغتها وكلماتها. مضيتِ بطريق لا ترغبين أن يكون له إياب، طريق ترين فيه بريق أمل؛ كلما تخطين خطوة أبعد من الأخرى تحسّين بالأمان مع أنك أصبحت بعيدة من منزلك ومكانك الطّبيعي، لكن الأمان الّذي تشعرين به ليس أمان المكان والانتماء، بل هو أمان مختلف عمّا يعرفه الآخرون. هو أمان الذّات والكيان والشّعور. أمان لطالما حلمت به وتخيّلتِه. أمان ربما ستعيشينه كثيرًا في الأيّام القادمة لأنّك قررت الانتصار وإنهاء قواعد اللّعبة بطريقتك وتغيير مسار البوصلة بمزاجك.

أنا معك. ادخلي من الأبواب العريضة، اضربي بقدمك كلّ شيء، ولا تأبهي، فقدمُكِ عندي تساوي ملايين العقول والبشر.

جمالك أنار أضواء القاعة المظلمة الكئيبة، وحوّلها إلى ربيع مبتسم.

الرّسالة السّادسة..

حين يحبُّ الإنسان ويمتلك المشاعر الدفّاقة واللّغة المعبّرة... ماذا تتوقع أن ينشأ معه غير الصّدق؟ لم أبتعد في هذه الأيّام من أولى

كلمات الحبّ، ولم أتخلّص من ألفاظه لأنني لا أتاجر بمظاهر حبّ متفجّرة ومتلألئة، ولا أتلهّى بعلاقة عاطفية قد تجعلني مجنونة بكَ ومعكَ... فأنا قبلك عشت شقاء القلوب، واكتفيتُ بقطرات شحيحة، واليوم أعيش تدفّقًا سحريًّا معك، وأعرف أنّك محبوبي... وعلى الرّغم من خوفي من الحبّ... لكنني لن أفرّطَ بكَ .... وستكون ثقتي كثقة المؤمن بقدّيسه... لذا، اجعل قلبي يسير نحوك ويبقى حولك مداعبًا أحلامك ونومك دائمًا ... يحرسك ويغطّيك.... بينما أسهر كآلهة الحبّ وبي شوق إلى رؤية تفتّح عينيك وإلى زرع أولى ابتسامة فوق قلبك.... حبيبي، لا تظن أنّ الفراق سهل ولا اللّقاء أسهل... ولكن بينهما يوجد قلب ناعم رقيق يريدك، زرع فيك سهام كيوبيد... وانتشلك من قاع الجحيم ليحلّق بك فوق سحابات الهيام... وليمطر فوق يومك أشهى الأطباق الودّية.... أطباق رصّعتها بنبض قلبي يا أكبر حب رسمه التّاريخ الحديث.

فلا مجنون ليلى سيبقى
ولا جميل بثينة عاد
ولا ابن زيدون التفت إلى ولّادة
بل أنا دخلتُ تاريخك من بابه الواسع
لأخلق معك كلّ شيء في زمن اللاشيء
وأجعل كلّ شيء حاضرًا حقيقيًّا موجودًا

الرّد....

حياتي لماذا ترتدي كلماتك السّواد أحيانًا؟ ابقي ألوانك مفرحة زاهية. اعكسي صورة وجهك الحقيقية. الصّورة الّتي طالما حلمت بها، وقد آن الأوان لتحقيقها. دقّت ساعات الفرح، توقفت عقارب السّاعة عند العاشرة صباحًا من يوم الأحد الفائت، يوم التقينا معًا بكلماتنا، وتزاوجنا بأحاسيسنا وعشقنا بعضنا بحروفنا، وسكننا ذاك الطّيف الجميل الّذي لم نطرق بابه، بل هو من أتى إلينا وغمرنا تحت جناحيه، وطار بنا إلى عالم اللاكون، عالم اللاوجود، وعالم اللابشر. عالمنا نحن الّذي صرنا نعيشه لحظة بلحظة، ونتلهف إلى معرفة ما سيدور به ونتشوّق إليه. يعطينا كلّ يوم شعورًا أجمل مما قبله. يجعل أجسادنا ترتعش بالفرح، يخفق قلوبنا بالحب ويروي عطشنا بالعشق. عالم سنتمسك فيه بأيدينا وحروفنا وأحاسيسنا، ولن نرضخ لغير ذلك. صرت أعيش بداخلك كل لحظة. قلبي ينبض سريعًا. وكم أتمنى لو أحيا معك وأموت بقربك! ترى متى ستجمعنا الحياة معًا؟؟؟

لا أريدك حزينة بعد الآن، انتظريني سترينني مقبلًا على جوادي، داخلًا حصنك دخول الكربلائي، حاملًا سيفي بشراسة، وغير آبه للموت. آخذك لأروي شرايينك بالحبّ، وأقضي على كلّ مَنْ يقف أمامك بالقتل، سأسيّل الدّماء أنهارًا لأجلك، ولأفوز فوز أهل الجنة على النّار ...

«وغربت الحكاية كغروب الشَّمس ووداعها
لتفاصيل يومٍ راحلٍ لا محال...»

المحتويات



لقد كانت تعيش انفصالاً صامتًا مع نفسها، بعدما أدركت أنّ الزّمن قد غيّرها، وصارت تشعر باللاشيء، تلك الحالة كفيلة بأن تجعلها متيّقظة لأن تتلقّى كلماته بشيء من الصّخب القاتل والقول المميت، لأنّها بكل بساطة تعاني الحب، لكنّها لن تبكي، لقد اكتفت من البكاء.... لقد بكت عمرها السّابق كلّه، ولا يمكنها أن تعرض نقاط ضعفها له، كان يجب أن يدرك منذ البداية أنّها مختلفة عن النّساء كلّهن، وأنّه لا يمكن أن يساوم على حبّها مهما طال الزّمان، فهي ملكته وهي الّتي رأته كلّ شي في حياتها، وهي الّتي حلمت بأن تكون العمر كلّه معه، وطفلهما الصّغير بينهما، كم كانت أحلامها حمقاء!





ISBN978- 614-432-282-6
9 786144 322826